

الملوك والأسياذ في الشعر الجاهلي
دراسة في ضوء علم الميثولوجيا

د. حمود الدغيشي *

تاريخ القبول: ٢٠٠٨/٣/١٩

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٧/١١/١٩

ملخص

يناقش البحث نظرة الشعوب عامة، والعرب خاصة إلى ملوكهم وأسيادهم، تلك النظرة التي تشتمل في جانبها النظري والفلسفي على قنسية عقيدية؛ ذلك أن الملك أو السيد - في اعتقادهم - الوريث الإلهي، ويتمتع بالمزايأ نفسها التي يتمتع بها الإله في دينهم قبل الإسلام، واعتقدوا بامتلاكه قوة خارقة تميزه عن بقية البشر، فظهرت الأساطير التي تمجد هذا الملك أو السيد، تصاحبها طقوس معينة تثبت دعائهم، منها أسطورة الحمى الذي يحرم على الآخر انتهاكه، وأسطورة صانع المطر من خلال الاستمقاء بالملك أو السيد، وأسطورة الشفاء من خلال جسده ودمه الشريفين، كما اقترن السيد بالإله القمر (ود) الذي كان معبود العرب عامة، ورمزه الثور، ومن ثم نجد أسطورة الموت وتعظيم العرب قبل الإسلام لقيور سادتهم واتخاذها أضحية، ليستشيروا موتاهم في أمور حياتهم. ولقد ظهرت هذه الأساطير والطقوس في الشعر الجاهلي كافة، بشكل لافت للنظر، فتناولها البحث بالوصف والتحليل.

Abstract

Kings and Masters in Pre-Islamic Poetry

Dr. Hummoud Aldgeshi

This research discusses the way nations in general glorify their monarchs and leaders. As for the Arabs, the Arabs, monarchy and leadership is not only legally but also divinely inherited. The leaders used to have divine privilege. Leaders have unlimited power that to make them different from other people. Mythology held that leaders were glorified by performing certain ritual. Among these rituals was a taboo prohibiting people to violate. There is also the legend of the rain maker which is performed by seeking rain fall through the monarchs or leaders. There legend of recovery from an illness by touching a noble body or blood of a monarch or a leader, as they are connected with god - like moon (wadd) which looked like a bull and was also worshipped by all the Arabs before Islam. Another legend is that of glorifying the dead of a monarch or leader and their graves. They used to consult the dead and sought their opinion of about their own worldly affairs. These ritual and legends appeared very clearly in all the per- Islamic poems and they were all narrated in all of the per-Islamic poems and well - researched and analyzed in many Arabic like any books.

* قسم اللغة العربية، كلية التربية بالرباط، سلطنة عُمان.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

حظي الإنسان (الذكر) في التاريخ الإنساني القديم ؛ بالتقديس بعد الثورة الذكورية التي قام بها على أنقاض الآلهة الأنثوية، على الرغم من استمرار عبادة الأنثى لفترة متأخرة، لكن مكانتها ظلت دون مكانة الذكر في الفترات المتقدمة، وأصبحت الشعوب القديمة تنظر إلى الرجل الملك والسيد والشريف نظرة قدسية، يحلّ إلهاً تارة، ووسيطاً بينها وبين الإله تارة أخرى وهي نظرة ميثولوجية تختزل عقائد أمنت بها، وطقوسا مارسها، ولما كان الإنسان القديم يجهل مصدر الخير والشر، ومصدر النور والظلام، ومصدر الغيث والجذب، اعتقد في الإنسان الآخر المتميز عنه بالقدرة المادية والمعنوية مصدرأ لهذه جميعها، وشرع في نظريته ينسج إلهاً ووسيطاً لهذه المصادر، وليس أدلّ على ذلك من تلك الممارسات التي كان يقوم بها، إذا عترض سبيله الجانب الشرير، أو أصاب سبيله الجانب الخيّر.

ولعلنا نجد أمثلة كثيرة على أن الذكر كان يحتل تلك المكانة المقدسة عند الشعوب في الحضارة المصرية على سبيل المثال، ومن ذلك أن (جب geb) كان إلهاً ذكراً يمثل الأرض، وكان ملكاً قبل مجيء المخلوقات البشرية، ومن ذلك كانوا يطلقون على فرعون اسم " وارث جب" (١)

وكان الملك بالنسبة للمصريين مركز الوجود كله، لأنه كان ذاتاً بشرية ومقدسة في الوقت نفسه، كما كان حلقة الاتصال بين هذا العالم والعالم الآخر.. وعُدَّ " الملك " الصورة الحية على الأرض " لئله شمس"، وامتلك ثروته امتلاكاً رمزياً.. فيجب على كل من يتقدم من فرعون أن يطرح نفسه على الأرض، فيشُمّ الأرض ويزحف عليها، ويتضرع إلى ذلك الإله الكامل ويمتدح جماله... كما كانت الحياة والموت ملكاً للملك يعطي الصحة لمن يشاء.. (٢)

وفي القرآن الكريم دليل على تلك الألوهية التي كان يدعيها فرعون مصر، قال تعالى: ﴿ فَحَسَرَ فَنَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٣) وقوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ .. مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي.. ﴾ (٤)

وفي المستندات الإغريقية، كان الملوك أنفسهم هم الذين يقفون كل قرابين الدولة في أسبرطة، على اعتبار أنهم من نسل الآلهة (٥).

ويرى فريزر أن الألوهية التي كانت تحيط بالملك لم تكن مجرد صورة لفظية جوفاء، وإنما كانت تعبيراً عن اعتقاد راسخ متين. فقد كان الملوك يُقدسون في كثير من الحالات... باعتبارهم آلهة وأرباباً قادرين على أن يمنحوا أتباعهم البركات التي يظن على العموم أنها تتجاوز طاقة البشر الفانيين.. ومن هنا كان الناس كثيراً ما يتوقعون من ملوكهم أن يرسلوا عليهم المطر، أو ضوء الشمس في الموسم المناسب وأن يساعدوا على نمو المحاصيل وما إلى ذلك (٦).

وهذه الاعتقادات والممارسات تظهر كثيراً عند الشعوب القديمة مثل سكان إفريقيا، ومن تلك الشعوب، شعوب تسكن جنوب شرق أفريقيا، إذ إنهم كانوا لا يعبدون الأصنام ولا يعترفون بأي إله، لكنهم بدلاً من هذا يحظمون ملكهم ويقصدونه ويعذونه إلهاً مقدساً (٧).

(١) بوزنر، جورج وآخرون، معجم الحضارة المصرية، ترجمة، أمين سلامة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م، ص ١٢٢.

(٢) انظر: بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية، ص ٢٢٥ و ص ٢٥٦ و ص ٢٥٧.

(٣) سورة النازعات، الآية ٢٤.

(٤) سورة القصص، الآية ٣٨.

(٥) فريزر، جيمس، الفصح الذهبي، ترجمة، أحمد أبو زيد وآخرون، ج ١، ص ٩٧.

(٦) المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٤٨.

كما يعظم اللوانجو (loangu) ملكهم كما لو كان إلهاً، ويطلقون عليه اسم (الرب)، ويعتقدون أنه يستطيع أن ينعم بالمطر حيث يشاء. كما أن أحد ملوك بورما يؤمن أشد الإيمان بأنه شخص لا يطاله الموت، وعلى هذا الأساس بدأ يستبد جانباً لقب الملك ١ ويتجه نحو جعل نفسه إلهاً^(١).

أما قضية المطر فتحتل مساحة كبيرة من اعتقادات الشعوب القديمة، إذ نظرت غالبيتها إلى هذا الماء المنحدر من أعالي السماء نظرة قدسية، واعتقدوا فيه الحياة، واعتقدوا في صناعته قدسية عظيمة، وغالباً ما يكون صانع المطر الملك أو رئيس القبيلة أو سيدها الذي يتمتع بقدرة هائلة تميزه عن الآخرين؛ ولذا كان من أهم الأمور أن ترتبط هذه الوظيفة القدسية بالملك^(٢).

ومن هنا كانت العادة في إفريقيا الوسطى أن يكون صانع المطر عندهم أحد الرؤساء^(٣)، كما يؤمن أهالي منطقة (نيانزا) بأن المطر لا يسقط إلا بممارسة السحر، وأن مسؤولية صنع المطر تقع على عاتق رئيس القبيلة^(٤).

ويشير (فريزر) إلى أن الروايات القديمة تجعل القدرة على صنع المطر من أهم الأمجاد الرئيسية التي يمكن أن تنسب إلى الرؤساء والأبطال القدامى، ومن الجائز أنها كانت هي أصل نظام الرياسة^(٥).

وبالمقابل كان الملك يتمتع بقدرته على شفاء المرضى، كما هو عند اعتقاد بعض الشعوب من أن الملوك يمكنهم أن يشفوا الدرن الخنزيري بلوسة منهم، ولذا كان هذا المرض يعرف باسم "داء الملك"^(٦)، وقد تمكن أحد الملوك من شفاء مائة مريض بإشارة واحدة، كما زاد ملك آخر بشفاء مائة ألف مريض باللمس^(٧). وليس ذلك حسب بل إن الملك - كما تمتد بعض الشعوب - يمتلك بعض القوى الإعجازية أو الفائقة للطبيعة، فيؤثر على نمو المحصولات وإثمار أشجار الفواكه^(٨).

وليس بالضرورة أن تكون هذه الاعتقادات في حياة الملك أو الزعيم، بل إنها تظل مصاحبة له حتى في مماته، فيقدس قبره، ويرجى من صاحبه الرحمة والنعمة، وفي قرية كالبنجوا يصب أهالي القرية الماء على قبر أحد زعمائهم المشهورين وهم يقولون "أيها الجد، ارحمنا.. إن كانت مشيئتك أن نطعم هذا العام فأعطنا المطر"^(٩).

وهذا الأمر يقودنا إلى قضية عبادة الموتى، وقد انتشرت هذه العبادة عند الشعوب القديمة، فلم يكن الملك أو السيد عندما يغادر الدنيا يأفل نجمه، بل إن نجمه يظل، وتلك البركات والنعمة التي تغنق على الشعوب ما هي إلا من بركات الملك أو السيد الميت فتقام الطقوس لإنزال المطر، ولما كان الملك في الحضارة المصرية إلهاً في حياته، فقد كان إلهاً بعد موته أيضاً، ينتقل إلى السماء، ويخلفه إله من صلبه على الأرض، وبفضل الفراعنة تخصب الأرض، وينبت الزرع، ويجري النيل^(١٠).

(١) فريزر، الغصن الذهبي، ص ٣٥٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٣١٨.

(٥) المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٦) المصدر السابق، ص ٣٢٥.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٢٦.

(٨) المصدر السابق، ص ٣٢٢.

(٩) المصدر السابق، ص ٢٧٢.

(١٠) الخطيب، محمد، الخلود في حضارة مصر القديمة، ط١، دار طلائع، دمشق ١٩٩١م، ص ٨٠.

وَوُضِعَتِ المعتقدات الجنائزية المصرية جميعها أصلاً لأجل الملك، ووجدت تحقيقها اللاهوتي في طبيعته الإلهية، فبالنسبة للقبور يبقى فرعون بعيداً عن غيره في العالم الآخر شأنه في هذا العالم شأنه على الأرض، فينفرد بدار فخمة، ويكون معادله السماويون أقرب إليه دائماً من رعاياه^(١).

وكان القبر أقرب ما يكون إلى بيت تسكنه الروح أو تقود إليه من وقت لآخر للتزود بالطعام، أو استخدام الأدوات وما إليها من الهدايا الجنائزية^(٢).

كما تحفل المعتقدات الإغريقية بعبادة الموتى، فقد كان الإغريق يعتقدون بأن الموتى يجب دفنهم، ولذلك كان الرعب يأتي من عدم دفن الميت وتعرض جثته في العراء لنهب الحيوانات والتفسخ، كما تحفل ملحمة الإلياذة والتراجيديات الإغريقية بالكثير من المشاهد الدالة على تقديس الموتى وعبادتهم، حيث الاعتقاد الراسخ في حاجة الموتى إلى الطعام والشراب التي توضع أو تسكب على القبر لكي تستمر حياة الميت كما حياة الحي^(٣).

ومن تلك الممارسات الطقسية لعبادة الموتى، ما يقوم به صائغ المطر في نيوكاليدونيا؛ إذ يدهن جسمه باللون الأسود ويخرج من أحد القبور جثة شخص ميت ويحمل العظام إلى الكهوف.. ثم يصب عليها الماء فتحوله إلى مطر مرة ثانية من السماء^(٤). وكثيراً ما تستعطف قبائل التورادجا الموتى من أجل الحصول على المطر^(٥).

وروي الكلبي أن بنى شيث عبدت جسد آدم وعظمته وترحمت عليه^(٦)، ولم تكن شعوب الجزيرة العربية بمنأى عن تلك العبادات والطقوس فقد بلّت النقوش والآثار على تقديس الملوك والأسباط وعبادتهم، إذ ظهر في بعض مناطق الجزيرة العربية، لوحة جدارية، تشمل رسوم أربعة أشخاص، رجلين وامرأتين.. ويحتمل أنهم آلهة وهم يواجهون جهة الشرق^(٧).

وعثر على بعض القطع النقدية حوت مشهداً مصمماً بإتقان لشخص برأس مستطيل جالس على عرشه...^(٨) وهناك عملات تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، عثر عليها في (تاج)، ومنها عملة للملك أبي يشع، وهناك عملة للملك أبي أيل^(٩).

ولا يمكن أن نفهم احتواء العملة على صورة لرجال وملوك إلا في إطار فكرة التقديس التي قد تصل إلى العبادة. وقد اكتُشف في الجزيرة العربية أيضاً نقش ينتمي إلى خط المسند الجنوبي، وقد نقش عليه اسم "اسار" ملك القبايل وهو الوسيط الذي يطلب الرحمة من الإله، ويظهر من النقش مظاهر الولاء والطاعة للملك؛ إذ أراد الكاتب من النقش — كما ترى الدراسة التحليلية الأثرية — التأكيد على أن الدم الذي أريق ربما قدم للملك "اسار" ملك

(١) بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) فرايس، البوارج، الرحمن والفيضان، ط ٢، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠٠١، ص ٦٥.

(٣) الهياضي، خزل، المعتقدات الإغريقية، ط ١، دار الشروق، عمان ٢٠٠٤، ص ١١٤.

(٤) فريزر، البقيع الذهبي، ص ٢٧١.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٧٤.

(٦) الكلبي (الساب، هشام بن محمد ٢٥٦هـ/ ٨٧١م): الأصبليام، تحقيق: أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر، ص ٥١-٥٠.

(٧) الكلبي، عبد الرحمن وآخرون، تقرير عن الرسوم والنقوش الصخرية جنوب غرب المملكة (أبها - جازان)، ع ١٥٠، ق ٢، أطلال، السعودية ٢٠٠٠م، ص ١٠٣.

(٨) قزدر، محمد صالح وآخرون، تقرير عن أعمال ونتائج الموسم الأول لحفيرة تاج، ع ٨، ق ١، ص ٧٣، أطلال، السعودية ١٩٨٤م.

(٩) المصدر السابق، ص ٧٥.

القبائل وذلك عرفانا بالجميل لما قدمه لابن ولده بترويدة بالماء^(١).

وورد في نقوش الحجر النبطية وصايا أشخاص بدفنه في قبور، وإنذار من يحاول تخريب القبور ونهبها، بحلول لعنة الآلهة، وغرامة للملك المعظم، ولعل هذه الوصايا تظهر جانباً من الحياة الاجتماعية والدينية السائدة عند الأنباط، وتلاحظ قدسية الملك من خلال النقش إذ يرتبط اسم الملك (حارثة) بـ (ذي الشرى) الإله المعبود^(٢):

- ١ - هذا للحد، الذي عملت وشوح بنت.
 - ٢ - بمرت لنفسها بداخل المقبرة (هي) لها ولا بنتها.
 - ٣ - والذي سيفتحه أو يخرجهما.
 - ٤ - من اللحد هذا إلى الأبد فليكن معه (فليحضره معه) لسيدنا.
 - ٥ - حارثة ملك نبط محب شعبه ألف قطع حارثية.
 - ٦ - ويلعن ذو الشرى إله سيدنا والآلهة كلهم.
 - ٧ - من يخرج وشوح هذه من اللحد هذا إلى الأبد.
 - ٨ - وشهد على هذه اللعنة (للعنات) الآلهة كلهم...
- وفي نص آخر نجد أن الغرامة موزعة بين الملك وبين الإله (ذي الشرى) بالتساوي^(٣):
- فليكن معه (فليحضر معه) (ذو الشرى) (مقدار) ثلاثة آلاف
- قطع حارثية ولسيدنا
- حارثة الملك مثلها،.....

وقد انتشرت الطقوس الجنائزية في الجزيرة العربية، وغثر في مدافن القبور على أوانٍ للطعام والشراب، وكسر فخارية، وأطباق متنوعة للترايبين، كما عُثر على الأحجار الكريمة في تلك المدافن^(٤).

ومن الأخبار التي تُروى عن تقديس شعوب الجزيرة العربية لمولوكهم وتعبدهم لها، ما روي من أنه كان لبقياس ثمود ملك حسن السيرة، فلما مات شقَّ عليهم ذلك فضرَبوا حجاباً بينهم وبينه، ونصبوه صنماً لا يأكل ولا يشرب، وجعلوه إلهاً لهم^(٥). ولعل هذا الحزن الذي قاد إلى عبادة الملك يلف بنا إلى قضية الأصنام عند العرب في العصر الجاهلي، ومن هذه القضية قصة الأصنام الخمسة (ود، ومِزَاب، ويغوث، ويعوق، ونسر) التي تنكر البرواية أنهم كانوا في الأصل قوماً صالحين فماتوا، وحزن عليهم قومهم، فصنعوا تماثيل على أشكالهم وعكفوا عليها عابدين^(٦). وإذا تتبعنا أصنام العرب، وجدنا عدداً منها غير يسير يشير إلى شكل رجل كان ملكاً أو سيداً يرمز إلى آلهة

(١) الكباوي وآخرون، تقرير عن الرسوم والنقوش الصخرية جنوب غرب المملكة (أبها - جازان)، ع ١٥، ص ١١٣.

(٢) الذبيب، سليمان عبد الرحمن، نقوش الحجر النبطية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٨م، ص ٢٢٨.

(٣) الذبيب، نقوش الحجر النبطية، ص ٢٥٤. وانظر المناصفة، ص ٢٧٦-٢٧٧ و ص ٢٩٧.

(٤) انظر: الكباوي وآخرون، تقرير عن الرسوم والنقوش الصخرية جنوب غرب المملكة (أبها - جازان)، ع ١٥، و ع ٩، ص ٣٢٢-٣٢٥. و هلال محمد أسكوبي وسيد رشاد أبو العلا، حفريات ناج، الموسم الثاني، ع ٩٦، ق ١، ص ٤٣، إبيجيل، السعودية ١٩٨٥، ص ٤٢ ولزهر وآخرون، تقرير عن أعمال وإنتاج الموسم الأول لحفريات ناج، ع ٨٤، ص ٣٢ و ص ٣٧-٣٩ و ص ٤٣-٤٤، ١٩٨٤.

(٥) ابن سعيد الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق: نصرت عبد الرحمن، ج ١، مكتبة الإقصي، عمان ١٩٨٢، ص ٤٩.

(٦) انظر: الكلبي، الأصنام، ص ٥١، والطبرسي، أبو علي الفضل بن حسن (القرن السادس) : مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، وفضل الله البزدي الطباطبائي، ج ١، دار المعركة، بيروت، ص ١٠٨.

يتعدونها على الرغم من اختفاء قصصها الأسطورية، ولعل وجود هذه التماثيل في العصور القديمة فيما يتعلق بالجزيرة يدلّ دلالة قاطعة على تقديس الإنسان للملوك والسادة الذين كانوا يمثلون آلهة أو أنصاف آلهة أو وسطاء بين الناس والآلهة، وقد عثروا في الجزيرة العربية على تماثيل من حجر كلسي يمثل رجلاً عارياً^(١) لعلّه يمثل إلهاً مقدّساً عندهم يشير إلى الجنس والخصوبة. ومن هذه الأصنام التي كانت تمثل رجلاً معبوداً عندهم (هبل) وكان لقريش، من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أتركته قريش فجعلت له يداً من ذهب تعظيماً لسه. وبلغ من تعظيمهم له أنهم إذا شكوا في مولود، أهدوا له هدية، ثم ضربوا بالدّاح، فإن خرج: صريح الحقّ، وإن خرج: ملصق دفعوه.. وهو الذي يقول له أبو سفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد: أعلّ هبل^(٢).

وكانت قريش تلوذ به وتتوسل إليه، ليمنّ عليها بالخير والبركة، وليدفع عنها الأذى وكل شر^(٣).

وكان قريبانه مائة بغير، وله حاجب يقوم بخدمته^(٤).

وقد ورد اسم (هبل) في الكتابات النبطية التي عثر عليها في الحجر... وقد تسمّى به أشخاص وبطون من قبيلة كنب، مما يدلّ على أن هذه القبيلة كانت تتعبّد له^(٥).

وتعبّدت بعض قبائل العرب للصنم (ذي الكفين)، ويبدو من اسمه أنه كان على هيئة إنسان (رجل)، وهو الذي يقول فيه الطفيل بن عمرو النُومي بعد أن حرّقه بأمر من الرسول (ص)^(٦):

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلاننا أكبر من ميلانكا

إني حشوت النار في فؤادكا

أما الصنم (مناف) فقد كان إلهاً معبوداً عند عرب الشام، وقد حُفرت صورته على الحجر على هيئة رجل لا لحية له يتحدر على عارضيه شعر رأسه الصناعي المرموز به إلى الآلهة شمس، وبه سُمّي عبد مناف^(٧). ويصادفنا كذلك الصنم "نو الرّجل" من أصنام الحجاز^(٨)، ويبدو من اسمه أنه كان على هيئة رجل.

وكان لصنم الفلّس - وهو صنم تعبّده طيء - أنف أحمر.. كأنه تمثال إنسان، وكانوا يعبدونه، ويهدون إليه ويعترون عنده عتائرهم، ولا يأتيه خائف إلا آمن ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت ولسم تخفّر حويته^(٩).

أما الصنم "ود" فقد تعبّده اللحيانيون والثموديون، ورمز إليه العرب الجنوبيون بصورة رأس ثور، وهو إله عام له شهرة عند العرب، وقد عمّت عبادته جزيرة العرب كلها، وقد بقي معبوداً حتى الإسلام، وأقيم له صنم في دومة

(١) انظر: دانيال ت بوتس، الخليج العربي في العصور القديمة، ترجمة: إبراهيم خوري، ج ١، المجمع النقشافي، أبوظبي ٢٠٠٣م، ص ١٤٧، ص ١٨٨. كما عثر على ختم من فخاريات الألف الثالث المتأخر يحوي وجه صورة إنسان، المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٢) الكلبي، الأصنام، ص ٢٧-٢٨.

(٣) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ط ٢، بغداد ١٩٩٣م، ص ٢٥٢.

(٤) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٥١.

(٥) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٥٣.

(٦) الكلبي، الأصنام، ص ٣٧.

(٧) انظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٨) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٨٣.

(٩) الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، ج ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣١٠.

الجنل، صنع على هيئة إنسان^(١).

لحل هذه الأصنام والتماثيل تشير في مدلولاتها إلى آلهة سماوية أو ملوك أو أسياد، اعتقدوا فيها البديل للإله السماوي، فالأخبار والروايات والأشعار تشير إلى ذلك التقديس للملوك والأسياد، ولعل في أسماء بعض الملوك إشارة إلى هذا التقديس، ومنه المنذر بن ماء السماء والمحرّق، والنعمان: وهو في الأصل اسم من أسماء الدم^(٢). وقد افتخر الشعراء الجاهليون بهؤلاء الملوك، كما نلاحظ في أشعار عامر بن الطفيل^(٣):

ولا لك في حَيِّي بكيل وحاشد نصيب ولا رِيَاك في المَلِكِ جَمِيرُ

وقال^(٤):

أو بني آكل المُرَار ولا صيـ سِدِ بني جَفَنَة المُلُوكِ الطَّوَالِ
وابن ماء السماء قد علم النسا س ولا خَيْرَ في مقالة غالي

وقوله أيضاً يذكر المحرّق والنعمان واللخمي، والإتاوة التي كانت تؤديها قبائل العرب للملوك^(٥):

فَخَرُوا عَلَيَّ بِحَبْوَةٍ لِمُحَرَّقٍ وإِتاوَة سَبَقَتْ إلى النعمان
ما أنت وابن محرّقٍ وقبيلِهِ وإِتاوَة اللُّخُمِيِّ في عَيْلانِ

أما الممزق العبدى فيستعطف عمرو بن هند ويمدحه قائلاً^(٦):

تروخ وتغدو ما يحلّ وضينها إليك ابن ماء المزن وابن مُحَرَّقِ
علّوتم ملوك الناس والمجد والتقى وغرب ندى من عروة العزّ يستقي
وأنت عمود الذين مهما نَقَلْ يَقلّ ومهما تَضَنّج من باطل لا يَلْحَقِ

وما تبقى من أخبار العرب وأشعارهم يدلّ على أنهم كانوا ينظرون في فترة متقدمة إلى ملوكهم نظرة قدسية، وعلى أنهم آلهة أو من نسل الآلهة، فأطلقوا عليهم لفظة (الرب).

"وقد كانوا يخاطبون ملوكهم بالأرباب"، قال الشاعر^(٧):

وأسلمن فيها ربّ كَنَدَة وابنه وربّ معدن بين خَبْتٍ وعَرَعر

ويقول الأعشى مادحاً^(٨):

(١) انظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦، ص٣١٤-٣١٥. وانظر: الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١٠، ص١٠٨.

(٢) المماري، فضل، "السموان" الأسطورة والمجهول، ع٢١، حواشي الآداب والمعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، الكويت ٢٠٠١م، ص٢٧.

(٣) عامر بن الطفيل، ديوانه، تحقيق: أنور أبو سويلم، ط١، دار الجيل، بيروت ١٩٩٦، ص٣٦٢.

(٤) المصدر السابق، ص٣٧٩.

(٥) المصدر السابق، ص٣٩٦.

(٦) الأصمعي، عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦هـ/ ٨٣١م): الأصمعيات، تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، ط٥، دار المعارف، مصر، ص١٦٦.

(٧) ابن فارس، أبو الحسين زكريا (ت ٣٩٦هـ/ ١٠٠٤م): الصحاح في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: عمر فاروق، ط١، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٩٣م، ص٩١.

(٨) ميمون بن قيس، ديوانه، تحقيق: محمد حسين، مكتبة الآداب، مصر، ص٢٢٩.

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يَكْثُرُ نِعْمَةً وَإِذَا يَنَاشِدُ بِالْمَهْـلَاقِ أَشْدَا
ويقول عدي بن ربيعة يرثي أخاه كليباً سيد قبيلة تغلب^(١):

قَتَلُوا رَبَّهُمْ كُلِّباً سَفَاهاً ثُمَّ قَالُوا مَا إِنْ نَخَافُ عَوِيلاً

وهذا السيد "الرب" هو امتداد موروث للشتمائل السامية، على نحو ما صورته النابغة الذبياني في منيحه للنعمان بن وائل الحلاج الكليبي، حين قال^(٢):

تَخَبُّ إِلَى النِّعْمَانِ حَتَّى تَنَالَهُ فَذَى لَكَ مِنْ رَبِّ طَرِيفِي وَتَالِدِي
وفي قوله أيضاً^(٣):

حَيَّاكَ رَبِّي فَإِنَّا لَا يَحِلُّ لَنَا لَهْوَ النِّسَاءِ وَإِنْ الدِّينَ قَدْ عَزَمَا

وقال النابغة الذبياني يرثي الحارث بن أبي شمر بن حجر بن الحارث بن جبلة الغساني، ويذكر (حارث) وهو مكان بجولان، وكيف أنه أصبح موحشاً بعد فقد الرب (الحارث)^(٤):

بَكَى حَارِثُ الْجَوْلَانِ مِنْ قَدَرِئِهِ وَحُورَانُ مِنْهُ مُوحِشٌ مُتَضَائِلُ

وكان يقال لحذيفة بن بدر الفزاري "رب معد" في الجاهلية^(٥).

ويذكر امرؤ القيس الرعية من الناس، على أنهم عبيد لأربابهم، ويقصد بالأرباب آباءه، يقول^(٦):

مَا يَنْكَرُ النَّاسُ مَنَاحِينَ نَمْلِكُهُمْ كَانُوا عِبِيداً وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَابُهَا

نَحْنُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ لَنَا مَلِكٌ بِهِ عَاشَ هَذَا النَّاسُ أَحْقَابَا

إِنِّي سَأَمْلِكُكُمْ بِالرُّومِ إِذْ كَرِهْتَ غَسَّانُ نَصْرِي وَكَانَ الْمَلِكُ أَسْبَابَا

أَوْ تَرْجُمُونَ كَمَا كُنْتُمْ لَنَا خَوَلَا حَتَّى يَدِينُوا لَنَا صَوْعاً وَاتِّعَابَا

وتشير بعض الأنماط الأسلوبية المتكررة في بلاط الملوك والسادة إلى طقس بلاطي تؤيده العرب، أمام هؤلاء الملوك والسادة، ومن ذلك "أبيت اللعن" وهي كلمة كانت العرب تحبب بها ملوكها، أي أبيت أيها الملك أن تأتي ما تسعلن به وعليه، وقيل معناه لا فعلت ما تستوجب به اللعن^(٧)، ولعل "أبيت اللعن" تحية مختصة بلخمس وجدام بالحيرة^(٨)، يقول النابغة الذبياني مخاطباً النعمان بن المنذر ملك الحيرة ومعتزراً^(٩):

أَتَأْنِي أَيْتَ اللَّعْنِ أَنْكَ لِمَتَّسِي وَتِلْكَ الَّتِي أَهْمْتُمْ مِنْهَا وَأَنْصَبُ

وقوله^(١٠):

(١) عدي بن ربيعة، ديوانه، تحقيق: أنطوان محسن القوال، ط١، دار الجيل، بيروت ١٩٩٥، ص ٦٥.

(٢) زياد بن معاوية بن ضباب، ديوانه، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٦م، ص ١٩٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٤) المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٥) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت ١٥٨هـ/١١٢٤م): مجمع الأمثال، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، ج ٢، ص ١١٠.

(٦) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، ديوانه، تحقيق: أنور أبو سويلم ومحمد الشوايكة، ج ٢، ط١، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين ٢٠٠٠م، ص ٦٩٤.

(٧) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيلي (ت ١٢٥٠هـ/١٧٩٠م): تاج العروس، مادة: لعن، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، الكويت ٢٠٠١م.

(٨) انظر: أحمد كمال زكي، التفسير الأسطوري للشعر القديم، ج ٢، فصول ١٩٨١م، ص ١١٦.

(٩) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٥٤.

(١٠) المصدر السابق، ص ١٦٥.

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامح

وقوله^(١):

هذا الشاء فإن تسمع به حسنا فلم أعرض أبيت اللعن بالصنف

وفي قول المتقرب العبد، يمدح عمرو بن هند^(٢):

فأنعم أبيت اللعن أنك أصبحت لديك تكيز كهلها ووليدها

وعند علقمة بن الفحل مخاطباً الحارث بن شمير الغساني^(٣):

إليك -أبيت اللعن - كان وجيفها بمشتبهات قولهن مهيسب

"ولعلها في دلالتها على تطهير "الملك الحبري" مما يلحن عليه - وكثيراً ما حمل أسباب اللعن كالعقوبة والفصام - يبين لنا أن الشاعر في بلاط الحيرة يكون دائماً مدفوعاً إلى أن يموّد نفسه بمثل "أبيت اللعن"^(٤).

أسطورة الحمى:

لعل ظاهرة "الحمى" من أبرز مظاهر التآليه والتقديس التي خصّ بها هؤلاء السادة والملوك، والحمى الموضوع الذي يُحمى، ويخصص بالإله أو المعبود أو الملك أو سيد القبيلة، والمكان الذي يحيط بالمعبد، فيكون حرماً آمناً لا يجوز لأحد انتهاك حرمة^(٥).

وتقابل كلمة الحمى في المصطلح الأجنبي "التابو" والمقصود بها على العموم الأشياء المقدسة التي يحظر على الناس الاقتراب منها خشية تنديسها مما يعرض الشخص نفسه للخطر وللنكسة الشعائرية^(٦).
"و معنى التابو، ذلك الذي ينتمي في المجتمعات البدائية للقوانين الطقوسية الخالصة الملحوظة بالملوك والرؤساء..."^(٧).

ولعل الحمى في أصله القديم للإله المعبود، أحيط بهالة قدسية، فلما كان الملك أو سيد القبيلة محاطاً بهذه الهالة القدسية كما أحيط بها الإله، أصبح الأخير بمنزلة الإله المقدس لا يجوز لأي كان انتهاك حرمة، فإذا أعجب الملوك بأرض أو بعشب أعلن حمايته لتلك الأرض أو لتلك العشب، فلا يسمح عندئذ لأحد بدخول "الحمى" أي المكان المحمي دون الملك أو الشخص المخول من الملك بهذا الحق، ويدخل في هذا الحق حماية الحيوان والنبات، وكسان ملوك الحيرة يحمون الأرضين والحيوانات كالإبل والخيول والكلاب، فتكون لهم لا يسمحون لغيرهم بالانتفاع منها^(٨).
ويقال إن شقائق النعمان منسوبة إلى النعمان بن المنذر؛ إذ خرج النعمان إلى "الظهر"، وقد اعتمّ نبتة من بين أحمر وأخضر وأصفر، وإذا فيه من هذه الشقائق شيء كثير، فقال، ما أحسنها! أحموها. فحموها، فسُميت شقائق النعمان^(٩).

(١) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٨٨.

(٢) عائذ بن محسن، ديوانه، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، ممد المخطوطات العربية، ١٩٧١م، ص ١١٦.

(٣) علقمة بن عبدة بن النعمان، ديوانه، تحقيق: لطفي الصقل ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، ص ٤٠.

(٤) زكي، أحمد كمال، التفسير الأسطوري للشعر القديم، ص ١١٦.

(٥) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٣٠٠.

(٦) فريزر، الغصن الذهبي، ج ١، الحاشية ص ١١٤.

(٧) عبد الحكيم، شوقي، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ج ١، ص ١٥٣-١٥٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.

(٨) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٢٥٦.

(٩) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م): المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، ص ٦١٠، ط ٤، دار المعارف، مصر.

وقد بلغ من تعظيم " بني بغيض " لسيدهم مرة بن عوف حدّاً " أن بنوا له حرمّاً مثل مكة لا يقتل صيده ولا يهاج عائذه " (١).

ولمّا مات عامر بن الطفيل نصبت عليه بنو عامر ميلاً في ميل حمى على قبره، لا تدخله ماشية، ولا تتشر فيه راعية ولا ترعى، ولا يسلكه راكب ولا ماش (٢).

ولقد بلغ من عي كليب أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى، وإذا جلس لا يمرّ أحد بين يديه إجلالاً له، ولا يحتمي أحد في مجلسه غيره ولا يغير إلا بإذنه (٣). وكان إذا مرّ بروضة أعجبت به أو غدير ارتضاه كنّع كليباً ثم رمى به هناك، فحيث بلغ عواؤه كان حمى لا يرعى (٤).

وبعد مقتل كليب أصبح حماء المخرم حلالاً للغزاة، وبطلت حرمة، يقول سعد بن مالك البكري (٥):

أبانه بالناب الذي شق ضرعها فاصبح موطوء الحمى متكللاً

ولعل قضية الحمى المتكلل تقودنا إلى قضية أخرى تتعلق بتحريم قتل الملوك، فعلى الرغم من تلك الأحداث التي تشير إلى قتل هؤلاء، إلا أنها تحمل في طياتها معتقداً راسخاً ظل لفترة طويلة من الزمن يمارس طقساً عند العرب، ويصعب تحليل أحداث القتل النازلة بملوك الجزيرة في معزل عما كان يُذكر في الطقوس الملكية العنيفة، مثل طقوس المنذر وكيف كان يضحي للعزى بالقرابين البشرية في يوم يؤسه، ويضحي بنديميه الأسديين وبالشاعر عبيد بن الأبرص، الذي جاء بنفسه إلى قدره (٦)، وغيرها من الأحاديث في القرابين البشرية التي كان يضحي الملوك بها، كما فعل المنذر في يوم أواره، إذ قام بنج الأسرى الرجال على قلة جبل أواره، وبإحراق النساء (٧). وإلى ذلك أشار الأعشى بقوله (٨):

سبأيا بني شيبان يسوم أواره على النار إذ تجلى له قتياتها

ويقال إن عمرو بن هند أطلق عليه "محرّق" لأنه أحرق ثمانية وتسعين رجلاً من "بني دارم" بالنار وكمّهم مائة برجل من "البسراجم"، وبامراة نهشلية (٩).

وقد ورد بين أسماء الجاهليين اسم له علاقة بالصنم "محرّق" هو "عبد محرّق"، يجوز أن يكون للمحرّق علاقة بهذا الصنم، كأن يكون قد اتخذ من باب التيمن بالملك الذي عرف بالمحرّق والتبرك به، أو أنه قدم قرباناً لهذا الإله أحرقه على مذبحه بالنار، وكان يكثر من حرق القرابين للألهة (١٠).

(١) انظر القصة بالتفصيل: الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م): الأغاني، شرح، عبد علي منها وسمير جابر، ج ١٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٩-٢٠.

(٢) انظر: عامر بن الطفيل، ديوانه، المقدمة، ص ١٠١. والمبرك، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢١٠هـ/٢٨٥م): التعازي والمراسي، ط ٢، دار صادر، بيروت ١٩٩٢م، ص ٨٧. وانظر: الحموي، حمى النقيب، ج ٥، ص ٤٣٨ وحمى ضريبة، ج ٣، ص ٥١٩.

(٣) شيخو، لويس، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ط ٣، دار المشرق، بيروت، ص ١٥٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٦٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٦٧.

(٦) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٤٩. وعلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٢٦.

(٧) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٢٧.

(٨) الأعشى، ديوانه، ص ٨٧.

(٩) ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٤٨. وانظر: الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٢، ص ٩٤-٩١. وخبر يوم أواره الأول: جاد المولى وآخرون، إسام العرب في الجاهلية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٩٩.

(١٠) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ١٨٩.

على أن نقض هذا (التابو) أو مبدأ التحريم عند بعضهم يدل دلالة واضحة في الوقت نفسه على صفات التقديس والألوهية التي تصبغ على الملوك والأسايد، ويقال إن امرأ القيس كان في جملة الأسرى في يوم جفر الملوك الذين ضرب المنذر أعناقهم فيه، لكنه أفلت من الأسر، فقال شعراً يرثي من قُتل^(١):

ألا يا عَيْنَ بَكى لي شَنِينَا وبَكَ لي المَلُوكُ الذَّاهِبِينَا
مَلُوكًا من بني حَجْر بن عَمْرٍو يُسَاقُونَ العَشِيَّةَ يَتَقَتَّلُونَا
فَلَو في يوم مَعْرَكَة أُصِيبُوا ولكن في ديار بني مَرِينَا
فلم تُسَلِّ جِماجمُهُم بِغَسَلٍ ولكن بالدماءِ مُرَمَلِينَا
وأطلق على هذه الحادثة حادثة جفر الملوك^(٢).
ويقول أيضاً في مقتل أبيه الملك^(٣):

سائل بني أسد بمقتل ربهم حجر بن أم قطام حلّ قتيلًا
هناك خبر أن المنذر قتل ابن الحارث بن جبلة، وقدّ مه ضحية إلى العزى^(٤).

ونلاحظ التخوّف عند كليب وائل من قتل الملوك، والنتيجة التي ستؤول إليها بعد نقضهم التابو المقدّس، يقول^(٥):

إن يكن قتلنا الملوك خطاءً أو صواباً فقد قتلنا لبيداً

ونجد أوس بن حجر يذكر مقتل المنذر بن ماء السماء، ونقض بني سحيم التابو الملكي بحرمة قتل الملوك، وإراقة دمائهم، ويتوقع أن هذا النقض سي جلب المصائب على بني سحيم، يقول مخاطباً قاتل المنذر بن ماء السماء^(٦):

نُبِئتُ أن دماً حَرَاماً نَلْتَسَهُ فَهَرِيقَ في ثَوْبٍ عَلَيْكَ مُحْبِرٍ
نُبِئتُ أن بني سَحِيمٍ أَذْخَلُوا أَثِيَاتَهُم تَامُورَ نَفْسِ المُنْذِرِ
فَلَبَسَ ما كَسَبَ ابنُ عَمْرٍو رَهْطَهُ شِمْرٌ وَكانَ بِمِسمَعٍ وَبِمَنْظَرِ

ويقول عدي بن زيد في قتل كسرى^(٧):

قتلوا كسرى بليلٍ محرماً فتولّى لم يمتّع بكفــــن

فكسرى — كما يقول الشاعر — لم يأت بشيء يوجب تحليل دمه.

وكان كسرى قد ألبس هونّة تاجاً من تيجانه وحلاً من حله، فكان لا يراه أحد من العجم إلا سجد له لذلك التاج؛ لصورة كسرى التي كانت فيه، يقول الأعشى^(٨):

(١) امرؤ القيس، ديوانه، ج ٢، ص ٦٤٦. وانظر الخبر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٢٤.

(٢) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٢٤.

(٣) امرؤ القيس، ديوانه، ج ٢، ص ٧٣٤.

(٤) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٢٤.

(٥) شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص ١٥٢.

(٦) أوس بن حجر، ديوانه، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ص ٤٧.

(٧) عدي بن زيد، ديوانه، تحقيق: محمد جبار المعبد، دار الجمهورية، بغداد ١٩٦٥، ص ١٧٨.

(٨) الأعشى، ديوانه، ص ١٤٣.

مَنْ يَزْ هُوْدَةً يَسْجُدُ غَيْرَ مُتَّحِبٍ إِذَا تَعَمَّمُ فَوْقَ النَّاجِ أَوْ وَضَمَا
أما جابر بن خنّي فلا يبالي هو وقومه بنقض هذا المبدأ التحريمي، بل يفخر بنقضه وقتل الملوك، يقول^(١):
نُعَاطِي الْمُلُوكَ الْمَلَكُ مَا قَصَدُوا بِنَا وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمُحْسَرَمٍ
يردّ أبو حنث على الملك أكل المزار ويهدده، بعد أن قتل أبو حنث أخاه يوم الكلاب وخاف على نفسه من الملك،
يقول^(٢):

قُلْ لَذَا الْأَكْلَ الْمَرَارَ خُذِ الْمَلْكَ ————
فَقَتَلْنَا لَكَ ابْنَ أُمِّكَ وَالْمَلْكَ ————
فَاعْتَدِلْ يَا ابْنَ ذِي الْمَرَارِ عَلَى الْقَصْدِ ————
وَلَا يَغُرُّكَ تَيْبَةُ الشُّبَابِ ————

وكذلك يقول^(٣):

قَتَلْتُ شَرْحِبِيلَ بْنَ عَمْرٍو بْنِ حَارِثٍ مُمَاماً عَلَيْهِ النَّاجُ وَابْنُ مُمَامٍ
فَلَا تَرْجُونَ يَا ابْنَ الْمَرَارِ نَصِيحَتِي وَلَا وَدَّ قَوْمٌ مَغْضِيْنَ رِغَامٍ

ونقول على الرغم من هذا القتل المحرم للملوك، والذي نقض عند بعض الأقوام، إلا أن النظرة القدسية لهؤلاء
الملوك والأسياذ ظلت فترة من الزمن حتى مجيء الإسلام، بل حتى في الإسلام ظلت لفظة "الرب" مرادفة للملوك،
وهذا حسان بن ثابت يخلع على جبلة بن الأيهم الغساني صفة الربوبية، ويذكر ملكه بالشام، وكان قد لحق بالروم،
يقول^(٤):

لَمْ يَنْسِنِي بِالشَّامِ إِذْ هُوَ رَبُّهَا لَا لَا وَلَا مُتَّصِراً بِالرُّومِ
ولم يكن الملك أو السيد مقتصر على السلطة السياسية فحسب، بل كان ملكه يشمل السلطتين السياسية والدينية،
ولعل من الثانية جاء أغلب التقديس، يقول الممزق العبد مستطفاً عمرو بن هند، مادحاً إيّاه^(٥):
وَأَنْتَ عَمُودُ الدِّينِ مَهْمَا ثَقُلَ يَقْلُ وَمَهْمَا تَضَعُ مِنْ بَاطِلٍ لَا يُلْحِقُ

ويقول النابغة في المنذر^(٦):

بُعِثْتَ عَلَى الْبَرِيَّةِ خَيْرَ رَاجٍ فَأَنْتَ إِمَامُهُمُ وَالنَّاسُ دِيْسُنُ

وكانت السلطة الدينية مصدر الخضوع والسجود لهذا الملك، ومما يروى أن النجاشي كان يسجد له عند الدخول
عليه^(٧). وقد ذكر الأعشى خضوع القوم لمسروق بن وائل، قائلاً^(٨):

النَّاسُ حَوْلَ قَبَابِهِ أَهْلُ الْحَوَائِجِ وَالْمَسَائِلِ
يَتَبَاذَرُونَ فَنَسَاءً قَبْلَ الشُّرُوقِ وَبِالْأَصَائِلِ

(١) أبو زيد، علي، شعراء تغلب في الجاهلية، ج ٢، ط ١، السلسلة التراثية، الكويت ٢٠٠٠م، ص ٢١٦.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٩-٢٥٠. وانظر الخبر: المولى، محمد أحمد جاد وآخرون، ص ٤٦-٤٨.

(٣) أبو زيد، علي، شعراء تغلب في الجاهلية، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٤) حسان بن ثابت، ديوانه، تحقيق: سيد حنفي حسنين، ص ٣٦٣، دار المعارف، مصر.

(٥) الأصمعي، الأصبغيات، ص ١٦٦.

(٦) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٢٦٧.

(٧) ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، ج ٣، المكتبة العلمية، بيروت، ص ٢٧٧.

(٨) الأعشى، ديوانه، ص ٣٣٩.

فَسَإِذَا رَأَوْهُ خَاشِعاً خَشَعُوا لَذي تَاجٍ خَلَّالِ

ولا عجب إذن أن نرى شاعراً حراً كالنابغة الذبياني يخلع على نفسه ثوب العبودية، ويجعل من نفسه عبداً للنعمان، يقول^(١):

فَإِنْ أَكُ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتُهُ وَإِنْ تَكُ ذَا عَتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتَبُ

وهي صيغة نلاحظ فيها التثني للرب الملك، على أن النابغة تتكرر عنده هذه اللفظة، وهذا التثني لمسيده الملك، يقول في قصيدة أخرى بعد أن توعد النعمان^(٢):

أَتُوْعِدُ عَبْدًا لَمْ يَخُتْكَ أَمَالِسَةٌ وَيَتْرَكَ عَبْدٌ ظَالِمٌ وَهُوَ ظَالِمٌ

وفي قصيدة أخرى يمدح النعمان بن المنذر، قائلاً^(٣):

فَإِنْ كُنْتُ أَمْرًا قَدْ سَوَتْ ظَنًّا بَعْدَكَ وَالْخُطُوبُ إِلَى نَبَالٍ

ولا عجب أيضاً أن ترتبط الرعية بهذا الملك، فحياته يعني حياتها، ومماته يعني مماتها، لأن الملك واهب الحياة ومرسل الموت، ولا قيمة للرعية بدون الملك، يقول النابغة^(٤):

تَكُونُ رَعِيَّةٌ مَا دُمْتُ حَيًّا وَلِهَيَّا بَعْدَ مَوْتِكَ مَا لَكُونُ

بل حتى الأرض مرتبطة بوجود هذا الملك، تنقل ببقائه، وتخف بموته، يقول النابغة مادحاً النعمان بن المنذر^(٥):

تَخَفُ الْأَرْضُ إِنْ تَفَدَّكَ يَوْمًا وَتَقَى مَا بَقِيََتْ بِهَا تَقِيْسًا

ويروى أن كعب بن زهير أكمل البيت، معللاً تلك القدسية التي أضفاها النابغة على النعمان قائلاً^(٦):

لَأَنَّكَ مَوْضِعُ الْقِسْطِاسِ مِنْهَا لَمَنْعَ جَانِبَيْهَا أَنْ تَمِيْسًا

ولا يمكننا أن نفهم قضية التبرك بالروءاء في الحروب إلا في ظل هذا الإطار القدسي الذي كان يعتقده العرب في رؤسائهم من بركات ينزلونها عليهم ساعة مواجهة الموت، فمما يروى أن قبيلة بكر جاءت بشيخها في يوم (الزورين) تيمناً بانتصارها، رذاعلى قبيلة تميم التي جاءت بزورئها اللذين يمثلان إلهي القبيلة، وهي مواجهة بين الآلهة في حرب يكون الانتصار لإله الأكثر قدسية وتعظيماً في اعتقاد القبيلتين، حتى انتصرت قبيلة بكر، فقال شاعرهم مفتخراً بقدسية الرئيس، مضفياً عليه الهالة الدينية القديمة من عهد إرم، يقول الأغلب بن جشم العجلي^(٧):

جَاءُوا بِزَوْرِهِمْ وَجِئْنَا بِالْأَصْنَمِ شَيْخٌ لَنَا قَدْ كَانَ مِنْ عَهْدِ إِرَمِ

فَكَرُّ بِالسَيْفِ إِذَا الرَّمْحُ الْحَطْمُ كَهْمَةِ اللَّيْثِ إِذَا مَا اللَّيْثُ هَمُّ

وكان شعار جيش النعمان بن الحارث (سُوع، ودعمي، وأيوب) وهي أسماء صالحين عند النصاري، يتبرك بهم عند الحرب، يقول النابغة^(٨):

(١) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٣) النعمان بن المنذر، ديوانه، ص ٢٠٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٦٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٢١٣.

(٦) انظر: النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٢١٣.

(٧) انظر القصيدة: ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م): العقد الفريد، ج ٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٩٨م، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٨) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٥٤.

مستشعرين قد ألفوا في ديارهم دعاء سَوع ودُعْمِيْ وأَيُّوب
كما كان شعار بعضهم " حنْ وأصيد " يقول عوف القوافي يذكر قوماً انهزموا أمام قضاة^(١):
وقد أسلموا استأثم للقبيلة قضاة يذعنون حنْ وأصيدا

أسطورة الحياة (صانع المطر):

ظل الماء طوال فترات التاريخ الإنساني حتى يومنا هذا مصدر الحياة، ولعل أكثر حروب العرب قبل الإسلام كانت من أجل الماء، إذ يمثل الماء عنصراً مقدساً عند عرب الجاهلية ونظروا إليه بإجلال وإكبار، كما نظروا إلى صانعه النظرة نفسها وإذا كان نصب الأصنام — وهي تمثل الأسباط والصالحين — لأجل الأمطار والاستسقاء، فمن البدهي أن يكون الملك أو سيد القبيلة محاطاً بهذه الهالة القدسية لما يمثله من مصدر للحياة، سواء أكان السيد إلهاً عند بعضهم، أم وسيطاً بينهم وبين الإله، وتبدو فكرة الوسيط عند الأعشى، حين يمدح إياس بن قبيصة الطائي، قائلاً^(٢):

ولو أنَّ عَزَّ الناس في رأسِ صخرةٍ مَثَلَمَةً تَنْبِي الأَرَحَ المَخَنَمَا
لأعطاك ربُّ الناسِ مِفْتَاحَ بابِها ولو لم يكنْ بابٌ لأعطاك سَلَمَا

وكثيراً ما نلاحظ تلك الصور الاستقائية بالرجال، ملوكاً كانوا أم سادة، ماثلة عند العرب قبل الإسلام في أشعارهم، كما كانت ماثلة عند الشعوب القديمة، لأن المطر هاجس جماعي عند الشعوب جميعها، فكما قُسمت الشعوب القديمة بمختلف أجناسها وثقافتها صانع المطر، قدسته كذلك الشعوب العربية في الجزيرة، ونجد عند النابغة الذبياني هذه الصورة القدسية، حين يمدح الحارث الغساني، قائلاً^(٣):

جَرَيْتُ أبيضُ يُسْتَسْقَى الغمامُ به من آل جَفَنَةَ في عَزٍّ وفي كَرَمٍ

والأعشى كثيراً ما يضيف على ممدوحه هذه الهالة القدسية، كقوله^(٤):

أغرُّ أبلجُ يُسْتَسْقَى الغمامُ به لو صارغ الناس عن أحلامهم صرعا

ويرتبط النور والابيض بالممدوح حين يوصف بهذه الهالة الغمامية المنزلة للمطر، كما رأينا، وكتبتا الصفتين تشيران إلى الخير، والصورة تتكرر عند زهير بن أبي سلمى، في قوله^(٥):

وأبيضُ فياض، يداه غمامة على معنفيه، ما تُغَبُّ نوافله

فلا يجد الشاعر عنصراً خيراً أعظم من المطر، يخلعه على ممدوحه، فكثر تشبيهات الشعراء لممدوحهم بهذا العنصر المقدس، كما يلاحظ عند الأعشى على شاكلة قوله^(٦):

كالغيث ما استمطروه جاذٍ وابلة وعند ذمته المستأبد الضاري

(١) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٥٤.

(٢) الأعشى، ديوانه، ص ٢٩٧. الأرح: العمل المنبسط الظلف. المخنم: المحجل الذي يستدير التحجيل بأرساغ رجليه دون يديه.

(٣) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٢٤١.

(٤) الأعشى، ديوانه، ص ١٠٧.

(٥) زهير بن أبي سلمى، شرح شعره، تحقيق: فخر الدين قباوة، ط ١، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ص ١١١.

(٦) الأعشى، ديوانه، ص ١٧٩.

وعند الخنساء في رثاء أخيها صخر، في قولها^(١):

وَكُنْتُ لَنَا غِيثًا وَظِلًّا رَيَّابَةً
إِذَا نَحْنُ شَيْنًا بِالنُّوَالِ اسْتَهْلَتْ

وتكرر الخنساء صفة اللياض التي تليها السحابة الماطرة، في قولها راثية أخاها صخر^(٢):

نِطَاقُهُ أَبْيَضُ دُو رُوَيْقٍ
كَالرَّجْعِ فِي الْمُدَّجَةِ السَّارِيَةِ

وصورة الغيث تتكرر عند بشر بن أبي خازم الأسدي، في رثاء أخيه سُمَيْر، يقول^(٣):

كُنْتُ غِيثًا لَهُنَّ فِي السَّنَةِ الشَّهْرِ
سَبَاءَ ذَاتِ الْغُبَارِ وَالْإِمْخَالِ

ولعل " الغيث " مرتبط بحاجة الإنسان ساعة الجذب والقطط، إِذَا يُسْتَعَاثُ بِالْمَمْدُوحِ لِيُغِيثَ الْقَوْمَ، حين تشجّ

السماء وتقطط الأرض، ويجوع الإنسان، ويقول بشر بن أبي خازم مادحاً أوس بن حارثة^(٤):

غِيَاثُ الْمُزْمِلِينَ إِذَا أَنَاخُوا
بِهِ فِي اللَّيْلِ الْغَالِي قِرَاهَا

لأن الممدوح هو الوسيط بين الرعية والسماء لإنزال المطر وهو البديل، يقول النابغة مادحاً النعمان^(٥):

أَلِكْنِي إِلَى النِّعْمَانِ حَيْثُ لَقِيْتَهُ
فَأَهْدِي لَهُ اللَّهُ الْغِيَاثَ الْبَوَاكِرَا

أما عند الخنساء فإن أخاها غيث الأيتام، حين يشتد الشتاء وتقطط الأرض، ويبس الزرع، تقول^(٦):

أَبَا الْيَتَامَى إِذَا مَا شَتَوَتْ جَدَرَتْ
وَفِي الْمَزَاجِفِ ثُبْتُ غَيْرُ وَقَافٍ

وقول زهير بن أبي سلمى، مردداً فكرة غيث اليتامى^(٧):

أَلَيْسَ بِفَيَاضٍ، يَدَاهُ غَمَامَةٌ
تَمَالِ الْيَتَامَى فِي السَّنِينِ مُحَمَّدٌ

وحين تشجّ السماء، لا تبيأس الرعية من الرحمة إذ إن الممدوح البديل السماوي، يقول الأعشى باهلة راثياً أخاه^(٨):

نَعْنَيْتُ مَنْ لَا تَعْبُ الْهَيَّ جَفَنَتْهُ
إِذَا الْكَوَاكِبُ أَخْطَأَتْ نَوَاءَهَا أُنْثَرُ

لم تر أرضاً ولم يسمع بها أحدٌ
إلا بها من نوادي وقعبه أُنْثَرُ

بل إن النعمان هو السماء التي تمطر الخير إن رضي والشر إن غضب، يقول عطاء ابن أرقم بن عوف مادحاً

النعمان^(٩):

وإِنْ يَذُ النِّعْمَانُ لَيْسَتْ بِكَزَّةٍ
وَلَكِنْ سَمَاءٌ تُمَطِّرُ الْوَيْلَ وَالنِّعَمَ

والصورة نفسها عند النابغة يمدح النعمان بن المنذر، قائلاً^(١٠):

وَأَنْتَ الْغِيَاثُ يَنْفَعُ مَا يَلِيهِ
وَأَنْتَ السَّمُّ خَالِطَةُ الْيَرُونِ

ويكرر الأعشى الفكرة نفسها حين يذكر الممدوح ونعمته، ويشبّهه بالغيث الذي يروي البلاد، يقول^(١١):

(١) تماضر بنت عمرو بن الحارث السلمية، ديوانها، تحقيق: أنور أبو سويلم، ط١، دار عمار، الأردن ١٩٨٨م، ص ١١٧.

(٢) المصدر السابق، الرجوع: الخنيز في بياضه وصفائه. المدجنة: السحابة الماطرة. السارية: التي أمطرت ايلاً، ص ٤٠٥.

(٣) بشر بن أبي خازم الأسدي، ديوانه، تحقيق: عزة حسن، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٢، ص ١٧٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٢٣.

(٥) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ١١٨.

(٦) الخنساء، ديوانها. جدّرت: تأخّر مطرها، ص ٤١٧.

(٧) زهير بن أبي سلمى، ديوانه، ص ١٦٩.

(٨) الأعشى، الأصمعي، ص ٨٩.

(٩) المصدر السابق، ص ١٥٩.

(١٠) النابغة الذبياني، ديوانه. واليرون: نوع من السموم، ص ٢٦٧.

(١١) الأعشى، ديوانه، ص ٣١.

وترى لـه ضراً على أعدائه وترى لنعمته على من نالها
أثراً من الخير المزيّن أهله كالغيث صاب ببلدة فأسالها
بل إن الخنساء ترفع أخاها صخراً إلى قدسية أعلى، حين تجعله أكرم من الغيث الذي ينعم بالخير والحياة على
الأرض، تقول رائية أخاها^(١):

وما الغيث في جند الثرى بمثل الربا تَبَقَّ فيه الوابل المتَهكِّلُ
بأفضل سبباً من يَدِّكَ ونِعْمَةٍ تَعُمُّ بها، بل سَيْبُكَ أَجْزَلُ
بل إن الفلج الذي يمتلئ الجداول ويروي الأرض، يقصر عن كرم الممدوح وعطائه، يقول الأعشى^(٢):

وما فَلَجٌ يسقي جداول صَبْتِي له شَرَعٌ سَهْلٌ على كلِّ مَوْرِدٍ
ويروي النَيْطُ الزُّرْقُ من حَجَرَاتِهِ دياراً تَرَوَى بالآثِي المَعْمَدِ
بأجود منه نائلاً إن بعضَهُم كفى مَالَةً باسمِ العطاءِ الموعَدِ
ذلك أن كَفَى الممدوح مصدر الخير والحياة، والممدوح واهب المطر وصانعه، ولا بد أن يعرف الشاعر الناس
هذا الخير ويحضنهم على استمطاره، يقول زهير بن أبي سلمى^(٣):

فاستمطروا الخير، من كَفَيْهِ، إنهما بِسَيْبِهِ يَسْرَوِي، منهما، البُعْدُ
ما زال في سَيْبِهِ سَجَلٌ، يَعْمُهُم مادام في الأرض، من أوتادها، وتَدُ

ولعل التشبيهات المتكررة في الشعر الجاهلي بالمطر هي تعبير عن الرغبة في المطر، وتعبير عن التوتر والقلق
الذي يعانيه الإنسان الجاهلي من الحباس المطر، وهذا التوتر ليس وليد الإرادة الواعية، إنما هو وليد الحسد
الجماعي والشعور العام، والرغبة في ماء الحياة^(٤).

وقد حملت أسماء بعضهم فكرة الماء والمطر، من ذلك قالوا لرجل من الأزد "ماء السماء"، غير ماء السماء أم
المنذر، وذلك لأنه كان إذا قحط القطر احتبى، فأقام ماله مقام القطر، فسُمِّيَ: ماء السماء^(٥).
وهذه الصور الاستباقية المتوحدة الفكرة، منبقة من معتقد جماعي واحد بقدسية صانع المطر، إذ يمثل
المصدر أو الوسيط الإلهي.

ومهما يكن من أمر فقد أضفى الشعراء الجاهليون على ممدوحهم، سواء أكان الممدوح ملكاً أم سيداً، بطسلاً أم
رجلاً شريفاً وكرماً، القداسة المهيبة من خلال استساقنتهم به، ليغيث العباد ويروي البلاد. كما قالت سُلَيْمى بنت
مهلهل، في رثاء أبيها، تقول^(٦):

والمستغيثُ به العبادُ ومن به يَحْمِي الذِّمَارُ وجُوزَةُ الجِيرانِ

ولعل في موت السيد انقطاعاً للمطر واهب الحياة، فانقطاع المطر ناتج عن موت المصدر، يقول الأعشى^(٧):

(١) الخنساء، ديوانها، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٢) الأعشى، ديوانه، ص ١٩٣.

(٣) زهير بن أبي سلمى، ديوانه، ص ٢٠٣.

(٤) أبو سويلم، أنور، المطر في الشعر الجاهلي، ط ١، دار الجيل، بيروت ١٩٨٧م، ص ٨٩.

(٥) ابن قتيبة، المعارف، ص ٤٦٧.

(٦) أبو زيد، علي، شعراء تغلب في الجاهلية، ج ٢، ص ٣٩٣.

(٧) الأعشى، ديوانه، ص ٥٣.

إذا الأرض وارتك أعلامها فكف الرّواعدُ عنها القطارا

ويرتبط بهذه القضية صورة الربيع، والربيع شكلٌ من أشكال الحياة الزاهية، والمتع الجميلة بعد أن يغمر الأرض المطر، فضلاً عن أنه شكل من أشكال النعيم والخير الذي تعيشه القبيلة، فصورة للربيع تستحضر رفاهية العيش، واللون الأخضر الجميل للحياة هو أثر من آثار نعمة المطر، وكثيراً ما ربط الشعراء الجاهليون صورة الربيع بالرجل الممدوح، بل إنهم جعلوه الربيع نفسه لأن الرجل الممدوح يمثل في كرمه الربيع في عطائه، وإضافته الشكل الجميل للطبيعة الإنسانية، وقد ظهر هذا التصوير عند النابغة الذبياني لارتباط شعره بالملوك والأسبياد في أغلب أحواله، ومن ذلك عندما يمدح للعمان بن المنذر، ويشبّهه بالربيع والشجر الحرام، إذ إن الصورتين، الأولى، وهي تتضمن العطاء والسعادة والعيش الرغيد، والثانية وهي تتضمن الأمن والسلامة؛ ذلك أن الشهر الحرام شهر مقدس عند العرب، لا تُسرق فيه الدماء، تُحيلان إلى النموذج المثالي للحياة الكريمة. ويفقد الملك النعمان، تُفقد الحياة الكريمة؛ لأنه مصدرهما، يقول^(١):

فإن يهلك أبو قابوس يهلك
ربيع الناس والشجر الحرام
وفي النعمان بن الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر، يقول النابغة، وكان النعمان قد خرج مريضاً^(٢):

إن يرجع النعمان نفرح ونبتهج
ويأت معداً ملكها وربيعها

وفي قصيدة أخرى يصف سيده بالربيع والسيف في آن واحد، وهما لفظتان متضادتان في الدلالة، فالأولى ترمز إلى الحياة والثانية ترمز إلى الموت، وكلا الأمرين، الحياة والموت، مرتبطان بالسيد، يقول النابغة^(٣):

وأنت ربيع ينشعش الناس سنبه
وسيف أعيرتة المنية قاطع

أسطورة الشفاء :

وإذا كان العرب قد اعتقدوا في أسيادهم مصدراً للماء، فإنهم اعتقدوا كذلك في لمائمهم وأجسادهم مصدراً للشفاء؛ ذلك أن الأسياد يتمتعون بدماء وأجساد شريفة طاهرة في اعتقادهم، غير التي يتمتع بها الرعية، وهو ما لا شك فيه يحمل نظرة قديمة ترفع هؤلاء إلى مصاف الآلهة أو ما يشبه الآلهة، ومن هذه المعتقدات، اعتقادهم أن دم السيد والملك والشريف يشفي المرء من داء الكلب، فالدم كان مقدساً عند العرب إذ يقدم قرباناً لأصنامهم التي تمثل آلهتهم السماوية، فترضى عنه، فجدد الذبيحة ودمها قربان إلهي قدمته العرب لأصنامها؛ طقساً دينياً وأقسمت به، ولعل جسد السيد أو الشريف ودمه يشكلان هذا القربان للشفاء من الأمراض، وهو يشكل بهذه الكيفية طقس العبور. كما نجد عند عوف بن الأحوص خالماً على القوم صفة قديمة حين يصف دماءهم الشافية من داء الكلب، يقول^(٤):

أو العنقاء ثعلبة بن عمرو
دماء القوم للكلبي شفاء

(١) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٢٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٣.

(٣) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ١٦٩.

(٤) ابن دريد، أبو بكر الحسن بن دريد (ت ٣٢١هـ/ ٩٣٣م): جهرة اللغة، تحقيق: رمزي ملير بعلبكي، ج ١، ص ٣٧٧، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧م. وانظر: الألويسي، محمود شكري، ج ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣١٩.

(٥) الضبي (المنفل بن محمد بن علي ١٧٨هـ/ ٧٩٤م): المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط ٨، دار المعارف، القاهرة، ص ١٧٥.

وقال عياش الكندي لبني أسد في قتلهم حجر بن عمرو^(١):

عبيد العصا جئتم بقتل رئيسكم
وتريقون تامورا شفاءً من الكلب
ويصف المتقنب العبدى عمرو بن هند، بطهارة الدم الشافي من داء الكلب، يقول^(٢):
بحاري الدم، مرطعته
يبرئ الكلب إذا عض وهر
ويصف أحدهم قوماً، قائلاً^(٣):

بناة مكارم وأساءة جرح
دماؤهم من الكلب الشفاء
ويفتخر دريد بن الصمة بنفسه وبقومه، فيقرر أن دماءهم حين يثار منهم شفاء للمغيرين، يقول^(٤):
يغار علينا واترين فيشتفى
بنا إن أصبنا أو نغير على وتر
وقال مالك بن حريم الهمداني، يمدح قبيلة بني الخيفان على أنهم شرفاء وأن دماءهم طاهرة^(٥):
يزيد بني الخيفان، إن دماءهم
شفاء، وما والى زبيد وجعنا
ويقول زهير بن أبي سلمى، مادحاً هرم بن سنان والحارث بن عوف^(٦):

وإن يقتلوا فيشتفى بدمائهم
وكانوا قديماً من منابهاهم القتل
أما الخنساء فإنها تجعل أخاها صخرأ شفاءً من المرض، إذ تقول^(٧):
ذلك الذي كنأ به
نشفى المريض من الجوائح
ويقول العباس بن مرداس مفتخراً بقومه^(٨):

وإني من القوم الذين دماؤهم
شفاءً لطلاب التراث من الوغم
ومن مظاهر تقديس العرب لأسياذهم وأشرافهم، أن المرأة المقلات إذا وطئت قتيلاً شريفاً بقي أولادها^(٩).
وفي التاج: امرأة مقلات: لا يعيش لها ولد. وقيل: المقلات هي التي لم يبق لها ولد، وهو مأخوذ من القلت وهو
الهلاك^(١٠) يقول طرفة بن العبد، يذكر النسوة المقلات^(١١):

لا تلمني إنها من نسوة
رقد الصئيف مقلات نزر
ويصف المتقنب العبدى ناقة مقلاتاً: أي لا تلجح إلا بطينا يقول^(١٢):

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م): الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ج ٢، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٩م، ص ٧.

(٢) المتقنب العبدى، ديوانه، ص ٧٠.

(٣) الألويسي، ج ٢، ص ٣١٨.

(٤) دريد بن الصمة، ديوانه، تحقيق: محمد خير البقاعي، ص، دار قتيبة.

(٥) الأصمعي، الأسمعيات، ص ٦٥.

(٦) زهير بن أبي سلمى، ديوانه، ص ٨٧.

(٧) الخنساء، ديوانها، ص ٣٢١.

(٨) العباس بن مرداس، ديوانه، تحقيق: يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت. والوغم: الحقد الثابت، ص ١٥٣.

(٩) النويري، شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢، ص ١٢٤، دار الكتب والأكوسي، ج ٢، ص ٣١٧.

(١٠) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م): تاج العروس، مادة: قلت، تحقيق: مصطفى حجازي، الكويت ١٩٦٩م.

(١١) طرفة بن العبد، ديوانه، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٥، ص ٥٨.

(١٢) المتقنب العبدى، ديوانه، ص ١٨٠.

تَشْدُ بِدَائِمِ الْخَطِّ سِرَّانِ جَثَلُ خَوَايَةِ فَرْجٍ مَقْلَاتِ دَهْيَسِنِ
ولعل العرب كانوا يعتقدون بالسحر الاتصالي إذ إن ملاصقة جسد الشريف أو السيد كفيل بسريان الدم الشريف المقدس إلى الجسد الآخر، مما يكفل له الحياة والبقاء ما دام أن العرب تعتقد في دماء هذا السيد عنصراً يتميز عن بقية الناس بقداسته، وليس هذا الدم يشفي من داء الكلب فحسب، بل يمكنه كذلك أن يشفي من الموت ويهب الحياة، يقول بشر بن أبي خازم في رجل من بني والبة يقال له ضباء بن الحارث، خالماً عليه وعلى جسده هذه الصفة القدسية^(١):

تَظَلُّ مَقَالِيتِ النَّسَاءِ يَطَأُنَّسُهُ يَقْلُنْ: أَلَا يَلْقَى عَلَى الْمَرْءِ مَنَزْرُ
"إن المرأة تنوط الرجل السيد عند قتله مباشرة؛ لذلك قال: "ألا يلقى على المرء منزر" لأنه عريان، والنساء يطأنه ويستحجن من عريه، وعند الوطء تنتقل الروح مباشرة من الجسد القاني إلى الجنين في أحشاء المرأة، فيعيش عمر الرجل السيد"^(٢).
وقال آخر^(٣):

تَرْكُنُ الشَّعْمَيْنِ بِرَمَلٍ خَبَّتْ تَزُورُهُمَا مَقَالِيتِ النَّسَاءِ
وكذلك عند أحدهم، حين يُرْفَعُ للنساء قتل عمرو بن مرة، فخير مقتله يشكل حياة للنساء التي تنفذ أولادها، يقول^(٤):
تَبَاشَّرَتْ الْمَقَالِيتُ حِينَ قَالُوا ثَوَى عَمْرُو بْنُ مَرَّةٍ بِالْحَفِيرِ
وقول أحدهم يصف النساء وهن يطأن القاتل الشريف؛ رغبة في الحياة^(٥):
بِنَفْسِي الَّذِي تَمَشَّى الْمَقَالِيتُ حَوْلَهُ يَطَأُنْ لَهُ كَشْحاً مُضِيماً مَهْشِماً
ولا عجب في اعتقادهم هذا إذ إنهم كانوا يرون في أجسام هؤلاء السادة والأشراف ودمائهم طهارة لا تتوثر في غيرهم، وقد كان الزبرقان يُرْفَعُ له بيت من عمام وثياب، ويُضْحَضُ بالزعران والطيب، وكانت بنو تميم تحج ذلك البيت، ويصف المخبل السعدي ذلك قائلاً^(٦):

وَأَشْهَدُ مِنْ عَوْنِ حُلُولٍ كَثِيرَةٍ يَحْجُونَ سَبَّ الزَّبْرِقَانِ الْمَرْعَرِ
ويصف النابغة الذبياني أجسام قوم غسان المُطَهَّرَةِ، يقول^(٧):
هُمْ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ لَهُمْ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ فِي اللَّأْوَاءِ وَالنُّعَمِ
أَحْلَامُ عَادٍ وَأَجْسَامُ مُطَهَّرَةٍ مِنْ السَّمْعَةِ وَالْأَفَاتِ وَالْإِثْمِ
ويذكر سَمَّاكُ الْيَهُودِي، راثياً كعب بن الأشرف سيد الأقباط، جسد كعب ودماء الطاهرة، ذات الرائحة العطرة، يقول^(٨):

- (١) بشر بن أبي حازم، ديوانه، ص ٤٢.
- (٢) أبو مويلم، أنور، دراسات في الشعر الجاهلي، ط١، دار الجيل، بيروت، دار عمار، عمان ١٩٨٧م، ص ٤٩.
- (٣) الألويسي، ج ٢، ص ٣١٨.
- (٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٨.
- (٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٨.
- (٦) السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت ٥٨١هـ/١١٨٥م): الروض الألف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج ٧، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٠م، ص ٤٥٠. والمخبل السعدي اسمه: كعب بن ربيعة بن قتال.
- (٧) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٢٣١-٢٣٢.
- (٨) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ٢٠٠.

فَنَادَرُوهُ كَانَ دَمًا نَجِيمًا
يسيلُ على مدارعه عيسرُ
وقال حسان بن ثابت يمدح قومه ويصف رائحة رشح جلودهم، برائحة المسك والزعفران، يقول^(١):
ملوك وأبناء الملوك إذا انتشوا
أهانوا الصبوح والسيف المسرهدا
إذا جلسوا ألغيت رشح جلودهم
من المسك والجادي جفا تنبذا
وقال حسان بن ثابت أيضا يجمع بين طهارة الدم ورائحة العرق في قومه، ويرفعهم إلى منزلة الملوك، حين يقول^(٢):

بكل فتى عاري الأشاجع لآخسة
قراغ الكُما يرشح المسك والدماس
إذا استد برتنا الشمس درت متوننا
كان عروق الجوب ينضخن عندها
ولسنا بني العنقاء وابني محرق
فاكرم بنا خالا واکرم بنا ابنا
على أن الربيع بن زياد العبسي يرفع مالك بن زهير العبسي منزلة أعلى حين يقرر أن النساء لا تطهر بعد مقتله، وكان مقتله شكلا عمقا لنساء القبيلة، مما يعني موتا للقبيلة كلها، يقول^(٣):

أبعد مقتل مالك بن زهير
ترجو النساء عواقب الإطهار

السيد والإله القمر:

لم يكن العرب بمنأى عن الكواكب السماوية، فلقد لفتت أنظارهم بأنوارها، واعتقدوا في أنوارها الخير والشر، ولعل القمر والشمس من أبرز هذه الكواكب وأعظمها تأثيرا في نفوسهم، ويذكر الشهرستاني أن الهنود يزعمون أن القمر ملك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، ومن سندهم أن اتخذوا له صنما، يقدمون له الطعام والشراب ثم يرغبون إليه، وينظرون إلى القمر ويسألونه حوائجهم^(٤).

"ولقد كان القمر هو الإله الذكر الأب عند العرب الجنوبيين، وفي أغلب المجتمعات البدائية عبد القمر كإسمي آلهة ثلاثية أطلقوا عليها اسم "نجم" وعند الساميين "هلال"^(٥). ومن ثم أصبح معبود العرب الشماليين بحكم وجود المستعمرات الجنوبية في الشمال، ويرى بعضهم أن لفظة "قمر" كانت الاسم المتأخر الذي أخفى به الساميون إسم رب الأرباب" بعد تحول الآلهة القمرية الأنثى إلى إله ذكر أب بظهور الملك الإلهي الذي وقر على اعتباره أنه الهيئة الذكرية للقمر، فخطب من أتباعه ومن عبيته "ود أب" أو "أب ود"^(٦).

وقد ظهر في الجزيرة العربية بمنطقة "أبها" رسمة شخص بطول ٥٥ سم يحمل سهما وقوسا يُشار إليه على أنه "ود"^(٧).

ويذكر "الكلبي" صفة الصنم "ود" "رمز الإله القمر": كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، قد دبّر

(١) جيبان بن ثابت، ديوانه، ص ١٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣.

(٣) المزدوقي، أبو علي إجمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م): شرح ديوان الحماسة، تحقيق: عبد السلام ماريون، وإجمد أمين، ج ٢، ط ١، دار الجيل، بيروت، ص ٩٩٢.

(٤) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م): الملل والنحل، تحقيق: محمد بن فريد، ج ٢، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٥) شوقي عبد الحكيم، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ص ٧٨.

(٦) المصدر السابق، ص ٨١.

(٧) الكباوي وآخرون، تقرير عن الرسوم والنقوش الصخرية جنوب غرب المملكة (أبها - جازان)، ع ١٥، ص ١٠٣.

عليه خلتان، مَنَزَرٌ بَحْلَةٌ، مَرْتَدٌ بِأُخْرَى، عليه سيفٌ قد تَقَلَّدَهُ وقد تَتَكَّبُ قَوْسًا، وبين يديه خَرَبَةٌ فيها لَوَاءٌ ووقُضَتْ فيها نَبَلٌ^(١).

ويذكر جواد علي أن اللحيانيين يُظَنُّ أنهم تعبدوا هذا الإله في مواطنهم الأولى، كما كان إلهًا معروفًا عند اللموبيين، ورمز إليه العرب الجنوبيون بصورة رأس ثور^(٢).

كما أن أول من سَمَّى "عبد ود" هو عوف بن غنرة، سَمَّى به ابنه، ثم سَمَّت العرب به بعد^(٣). وعُرف إله حضرموت الرئيس بـ "سن" "سين" وهو القمر. وهو إله شعب حضرموت الخاص^(٤). كما ورد في نقش ينتمي إلى خط المسند الجنوبي اسم "عم" : ابن ملك حضرمي لم يملك أو أنه الإله القبتاني فضلًا عن أن "عم" الإله الأكبر لقتيان وهو الإله القمر عندهم^(٥).

وكنَّى عن الإله القمر "المقة" وهو نفسه الإله "ود" بثور في اليمن، أي الإله "ثور" كما أن من ألقابه "ثور" فضلًا عن أن الثور كان حيوانه المقدس، وكانت الثيران من أكثر الحيوانات التي يُضْحَى بها للإله القمر "المقة" كما أن قبائل وعشائر بأسرها تسمت باسم "ثور"^(٦).

وعلى كل حال، فإن الملك اكتسب بعد ذلك قوته من عبادته للقمر، كما يرى شوقي عبد الحكيم، وذلك في انتقال القمر من إلهة أنثى إلى إله ذكر بعد أن كان يُضْحَى بالملك المقتول، ويُنثر دمه قربانًا للآلهة الأم، وقد عدَّ هذا الملك بعد ذلك الأب لنفسه، ممثلًا أو متقمصًا للإله القمر^(٧).

ولعلَّ هذا ما نلاحظه في إضفاء بعض السادة العرب على أنفسهم أسماء القمر، ومن هؤلاء اسم الزيرقان بن بدر، وهو أحد سادات العرب، وقد مرَّ معنا كيف كان يُرفع له بيت من عمائم... والزيرقان من أسماء القمر، قال الشاعر^(٨):

تُضَيُّ بِه المنابرُ حين يَرَقَى عليها مثل ضوئِ الزيرقان

وقيل: الزيرقان: ليلة خمس عشرة، وليلة أربع عشرة ليلة البدر^(٩).

وقد افترج الزيرقان بقومه، قائلًا^(١٠):

نحن الكرام فلا حيُّ يُعادِلُنَا منَّا الملوكُ وفيها تَنَصَّبُ البَيْسُغُ

وقد أشار القرآن الكريم إلى عبادة القمر، في قوله تعالى: ﴿... لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١١)

(١) الكلبي، الأصنام، ص ٥٦.

(٢) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٣١٥.

(٣) الكلبي، الأصنام، ص ٥٥.

(٤) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٣٠١.

(٥) الكهناوي وآخرون، تقرير عن الرسوم والنقوش الصخرية جنوب غرب المملكة (أبها - جازان)، ع ١٥، ص ١١٠.

(٦) عبد الحكيم، شوقي، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ص ٨٣.

(٧) المصدر السابق، ٧٩-٨٠.

(٨) السهيلي، الروض الأثف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج ٧، ص ٤٥٠.

(٩) الزبيدي، تاج العروس، مادة: زيرق، تحقيق: مصطفى حجازي، الكويت ١٩٨٩م.

(١٠) السهيلي، الروض الأثف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج ٧، ص ٤٥٠.

(١١) سورة فصلت، الآية ٣٧.

وقد نرى في إطلاق الشعراء على ساداتهم "كهل" بقايا ذلك التراث الديني القديم، فقد كان "كهلن"، أو "الكهل" و"الكاهل" إلها من آلهة المعبين، وهو يرمز مثل "وذ" إلى القمر^(١). فتسمت بالإله القمر قبائل كهلان باليمن، كما عرف بهذا الاسم عند القبائل البائدة للعرب الشماليين في الحجاز ولجد^(٢). وتعني لفظة "كهل" المعنى المفهوم منها في عربيتنا، كما تعني "القدير"^(٣).

ولعل الطور العمري للرجال كان له تقديس خاص في حزم أمور القبيلة، خاصة في مرحلة الكهولة، ونجد لفظة "كهل" في وصف ساداتهم تتكرر في الشعر الجاهلي، من ذلك قول حسان بن ثابت يصف سادة قومه، قائلا^(٤):

وفينا إذا ما شبت الحرب سادة كهولاً وفتيان طوال الحمائل

وإذا كان الفتى الشجاع يخوض غمار المعركة، فإن مياسة القبيلة ملقاة على عاتق الكهل، المدبر لشؤونها، يقول حسان أيضاً^(٥):

فالأولم حلّ على الحماس فما لهم كهل يسود ولا فتى يهتول

كما يصف حسان مجالس القوم التي يتوسطها سيدهم الكهل، يقول^(٦):

وتلقى على أبياتنا حين نُجسّدِي مجالس فيها كل كهل معتم

أشمّ طويل الساعنين سمّزّدع معيد قراع الدار عين مكّسّم

ويرثي المهلهل أخاه كليباً، واصفاً أخاه بالكهل، يقول^(٧):

إنّ تحت الأحجار حزماً وعزماً وفتيلاً من الأرقام كهلاً

وعند عمرو بن معد يكرب، يصف السادة الكهول من قومه، قائلا^(٨):

ففتنّهنّ على كهول سادة وعلى شرامحة من الشبان

أما القمر فقد ظهر في تشبيهات الشعراء الجاهليين بكثرة، ومن ذلك حين يشبه الأعشى الأسود بن المضر اللخمي، بالهلال في قيام الناس له، تبجيلاً وتقديساً، يقول^(٩):

أرجي صلتك يظّل له القوم م ركوناً قيامهم للهلال

ويرصد موسى بن جابر في مدح أبي الغنزيّة، صورة الهلال في استضاءة الناس بنوره، واعتلاء شأنه، كما هي حال الممدوحين، يقول^(١٠):

هلالان حمالان في كل شتوة من القتل ما لا تستطيع الأباعر

ونجد عند الخنساء الفكرة نفسها التي طرحها الأعشى، من قيام الناس للهلال، رافعة شأن أخيها صخر لمنزلة

(١) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦، ص٢٩٥.

(٢) عبدالحكيم، شوقي، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ص٨٢.

(٣) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص٣١٢.

(٤) حسان بن ثابت، ديوانه، ص١٦٧.

(٥) المصدر السابق، ص١٧٨. والبهلول: السيد الشريف.

(٦) المصدر السابق، ص١٨٤.

(٧) المهلهل، ديوانه، ص٦٣.

(٨) عمرو بن معد يكرب، شعره، تحقيق: مطاع الطرايشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٤، ص١٦١.

(٩) الأعشى، الأسود بن المضر اللخمي، ديوانه، ص٩.

(١٠) المرزوقي، شرح ديوان الخنساء، ج١، ص٣٦٩.

الآلهة المقدسة، تقول^(١):

ملكٌ ماجدٌ يقومُ له النـا
ولما بلغ مقتل بسطام بن قيس أمه، قالت ترثيه^(٢):
إذا ما غدا فيهم غنواً وكأنهم
وظهرت صورة القمر في الشعر الجاهلي حين يُضئُ الظلمة، كما هي حال الممدوح بين الناس، كما يقول أعشى
باهلة رائيًا أخاه، خالماً عليه الأنوار القمرية، يقول^(٣):
ورأى حربٌ يستضاء به
كما يُضئُ سوادُ الظُخيةِ القمرِ
ويقول النابغة في النعمان بن الحارث الغساني، ويشبهه بالقمر الإله الأب "ود"^(٤):
متوجٌ بالمعالي فوقَ مقرِّبه
وفي الوعى ضئيفٌ في صورة القمر
وتتكرر الصورة عند أعشى باهلة، حين يرثي أخاه الملتشر، ويضفي عليه الأنوار القمرية، جاعلاً مكانته كمكانة
القمر في الظلمات، يقول^(٥):

مردى خروب، شهابٌ يستضاء به
ويشبه الأعشى قيس بن معد يكرب بالبدر، في قوله^(٦):
إنا لدى ملكٍ بشبْ
متحلبٌ الكفونِ منْ
كما أضاء سوادَ الظلمةِ القمرِ
و "ما تغبُّ له النوافلُ
ل البدرِ قوالٍ وفاعلُ
"إن تشبيه الممدوح بالقمر أو الهلال، لا يقصد به، مجرد التشبيه، أو التعبير عن رفعة الشأن أو وضاعة الوجه
وما إلى ذلك، بل هو امتداد وتأثر بالنظرة الدينية الأسطورية، التي كانت تربط زعماء القبائل بالأرباب التي تعبدوها.
حتى وإن تنوسي الأصل الأسطوري القديم"^(٧).
ويقول عبدالله بن الزُّبَيْر يبيكي قتلى بدر^(٨):
والحارثُ الفَيَّاضُ يَبْرُقُ وجْهُهُ
كالْبدرِ جلى ليلة الإِظلامِ
"إن" فياض "تحمل كل الميراث القديم. القمرُ فياضٌ لارتباط أسطورته بالمطر"^(٩). وتتضح هذه الفكرة عند أبي زبيد
الطائي، رائيًا ابن أخته، في قوله^(١٠):

أصْلَتِي تَمْشُو العِـيـونُ إلـيـهِ
مُسْتَكْبِرٌ كالْبدرِ عَامَ المَهِودِ

(١) الخنساء، ديوانها، ص ٣٥٣.

(٢) شيخو، شعراء العصرانية قبل الإسلام، ص ٢٦١.

(٣) الأصمعي، الأسمعيات، ص ٩٢.

(٤) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ١٥٤.

(٥) القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (ت أوائل القرن الرابع الهجري): جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق: محمد علي الهاشمي، ج ٢، ط ٢، دار القلم، دمشق ١٩٨٦م، ص ٧١٧.

(٦) الأعشى قيس بن معد يكرب، ديوانه، ص ٣٤٧.

(٧) علي البطال، الصورة في الشعر العربي، ص ١٨٤-١٨٥، مطبعة الفجر، بيروت.

(٨) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ١٥٥.

(٩) علي البطال، الصورة في الشعر العربي، ص ١٨٦.

(١٠) حرمله بن المنذر، ديوانه، تحقيق: نوري القيسي، ص ٥٣، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٧م.

ونجد التشبيه بالبدر عند بشر بن أبي خازم، يرثي أخاه سُمَيْرًا، قائلا^(١):

لَلَّهِ دُرُّ الْقَبْرِ مَا حَثِيْتُ أَرْوَعُ شَيْهَا لِلْبَنْرِ إِذْ سَطَا

ويستعيض الشعراء الجاهليون أحيانا في قصائدهم، عن القمر بالنور؛ للوظيفة نفسها التي يقوم بها القمر، يقول مالك بن حريم الهمداني، يمدح قومه^(٢):

وَمَنْ رَأَيْتُ يُسْتَضَاءُ بِنُورِهِ سَنَاءُ وَحِلْمًا فِيهِ، فَاجْتَمَعَا مَعَا

أما قضية "النور" رمز الإله القمر، فلا يمكننا أن نفهم صورة الثور الوحشي في الشعر الجاهلي، بمنأى عن هذه العلاقة الثنائية، فالإله القمر رمزٌ إليه العرب بـ "نور" وتعبده العرب، وعده العرب الجنوبيون من الحيوانات المقدسة التي ترمز إلى الإله "القمر"، وجسد بعضهم هذا الإله برأس إنسان له لحية وقرنان^(٣).

كما ظهر في صورة آشورية تمثله رجلا ملحقا يرتدي ثوبا قصيرا، ويلبس قبعة فيها زوجان من القرون، ويمسك بيمنه فأسا ويسراه صاعقة^(٤). كما هي الحال عند العرب في الصنم "ود" كما وصفه الكلبي، وذكره الطبرسي من أن "ود" كان على هيئة إنسان، ولما كان الملك أو السيد رمزا إلهيا أرضيا للإله السماوي، أو صورة له، يقوم بالوظائف نفسها التي يقوم بها الإله "القمر"، فلعل هذا ينسحب على الثور الوحشي الممثل للإله "القمر". ولو أنعمنا النظر في صورة الثور الوحشي في القصائد الجاهلية لوجدنا قصته "تحمل تقلا وجدانيا وعاطفيا ودينيا عظيما، فيها شوق وعذاب، ورغبة ورهبة منذ أن كان الإنسان القديم يُبجِّل الثور ويقُدِّسه"^(٥).

وانظر إلى هذه الصورة التي يطلقها بشر بن أبي خازم في بيت واحد، مصورا هذا الثور في صراعه مع الكلاب، وكيف أن الكلاب مزقت جلده، تماما كالراهب المقدس الذي جاء من بيت المقدس، فقطع صبيان النصارى ثيابه؛ تبركا به، يقول^(٦):

وَأُتْرِكْتُ يَأْخُذُنِ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا كَمَا خَرِقَ الْوَلْدَانُ ثَوْبَ الْمُقَدَّسِ

وكثيرا ما نلاحظ صورة الثور في الشعر تظهر ليلا، ويتعرض خلالها لريح الشتاء الباردة وركونه إلى شجرة الأرتى، وتعرضه لمطاردة الكلاب حين تتسج الشمس خيوطها^(٧). هذه العناصر يجب أن تقوم في الذهن عندما نتلمس مكونات صورة الرجل المثال، التي تظهر في مواقف المدح أو الثناء أو الفخر، فالرجل الكامل رمز ممثل للإله الأب القمر - وبديل لرمز الثور الوحشي الذي عبّد رمزا ممثلا للقمر أيضا^(٨).

فالربط بين الممدوح والثور هو ربط بين الإله الأب - القمر - وبين رمزه المقدس. ولننظر مرة أخرى إلى أبيات بشر بن أبي خازم، كيف يصور الثور وعلاقته بالكواكب، واستنزاله المطر، وصراعه مع الكلاب، يقول^(٩):

(١) بشر بن أبي خازم، ديوانه، ص ١٢٤.

(٢) الأصمعي، الأصمعيات، ص ٦٦.

(٣) فريزر، أدونيس، ترجمة، جبرا إبراهيم جبرا، ط ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩م، ص ١٢٠.

(٤) فريزر، أدونيس، ص ١٢٠.

(٥) أبو سويلم، أنور، المطر في الشعر الجاهلي، ص ١٥١.

(٦) بشر بن أبي خازم، ديوانه، ص ١٠٢.

(٧) انظر: قصيدة زهير بن أبي سلمى، شرح شعره، الحاثية، ص ٤٤-٤٥. وقصيدة ليبد بن ربيعة العامري، ديوانه، تحقيق: إحسان عباس، ط ٢، الكويت ١٩٨٤م، ص ٧٦-٨٠.

(٨) علي البطال، الصورة في الشعر العربي، ص ١٨٣.

(٩) بشر بن أبي خازم، ديوانه، ص ٥٥-٥٧.

طباو برمسة أوزال تضيقة
فبات في حقب أرطاة بلوذ بها
يجري الرذاذ عليه وهو منكس
باتت له المقرب الأولى بنثرتها
ففاجأتها، ولم يرهب ففاجتها
معروقة الهام، في أشداقها سعة
فأزعجتة، فأجلى ثم كر لها
فمارسته قليلا، ثم عادرها
إلى الكناس عشي بارد صرد
كأنه في ذراها كوكب يقد
كما استكان لشكوى عييه الرمد
وبله من طلوع الجبهة الأسد
غضب نوال في أعناقها القند
وللمرافق فيما بينها بند
حامي الحقيقة يحمي لخمه نجد
مجرّب الطعن فتال له جسد

"إن الحديث عن المطر لا يتضح تماما في القصيدة الجاهلية إلا عندما تسرد قصة ثور الوحش؛ لأن الثور رمز مشهور من رموز المطر"^(١).

ولعل الثور -كما هي حال الرجل المثل "ود"- صانع المطر، ومنزل الغيث، وقد اتخذ تعويذة سحرية لاستئصال المطر، فقد كان يحشى جلده بالبذور الزراعية، ويمزق جلده ليتدفق منه الحب فيمطر القوم^(٢).

كما أن ظهور الثور ليلا في الشعر الجاهلي يتناسب في منطوقه مع بعض الطقوس التي تقيمها إحدى القبائل عند حلول المساء، عندما تحرق عدة أحد النيران، وذلك لأن الدخان الأسود يجمع السحب ويسبب سقوط المطر^(٣).

ولهذا نجد الشعراء الجاهليين يقرنون الثور دائما بالكواكب المعبودة، يقول عبيد بن الأبرص^(٤):

كالكوكب الذري يشرق منة
خرصنا خميصا صلبه يكاو

وعند أوس بن حجر، في قوله^(٥):

وانقض كالذري يتبعه
نق يثور تخاله طنبا

وعند الأعشى، في قوله^(٦):

تجلو البوارق عن طيان مضطر
تخاله كوكبا في الأفق نقبا

ويظهر الثور قاضي نذور عند ليبد والنابعة، هذه الصورة توحى بصورة السيد المقدس، الذي يصلي صلاة الاستسقاء، يقول ليبد^(٧):

فبات كأنه قاضي نذور
يلوذ بسرق خصل وطال

ويقول النابغة^(٨):

فبات كأنه قاضي نذور
شرى لله ينتظر الصباحا

"وقد يرى الإنسان القديم في معبوده نقائص الإنسان، وعيوبه، وقد يحب، وقد يكره... لذلك كان الثور يتصف

(١) أبو سويلم، أنور، المطر في الشعر الجاهلي، ص ١٦٦.

(٢) النوري، قيس، الأساطير وعلم الأجناس، دار الكتب، الموصل، المرق ١٩٨١م، ص ١٩٢.

(٣) فريزر، الفصح الذهبي، ص ٢٧٦.

(٤) عبيد بن الأبرص، ديوانه، تحقيق: حسين نصار، ص ٤٤، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٧م.

(٥) أوس بن حجر، ديوانه، ص ٣.

(٦) الأعشى، ديوانه، ص ٥٥.

(٧) ليبد، ديوانه، ص ٧٦.

(٨) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ٢١٥.

بصفات مجتمع البشر...^(١)

أسطورة الموت:

ظل الإنسان طوال حقب التاريخ عاجزاً أمام فكرة الموت، وجسدت كل أمة هذه الفكرة الغامضة في إنسان أو حيوان، أو نبات، أو شيء مجرد، وجعلته المسؤول الأول عن الموت، واعتقد العرب الدهر صائماً للموت، ومسؤولاً عن تلك الكوارث التي يُصاب بها الإنسان أو الحيوان أو غيره، ولما كان الدهر عنصراً مجرداً لا يستطيع الإنسان التخلص منه أو كفه عن ممارسة طبيعته القاتلة، وقف الإنسان الجاهلي عاجزاً أمامه، وهو ينظر إليه ينشأ برأيه فيه، فظهرت البكائيات في الشعر الجاهلي، لكن الإنسان الجاهلي اعتقد بخلود الروح ويقائنها بين الأحياء تأكل وتشرب كما يأكل الأحياء ويشربون، ومن هنا جاءت فكرة تقديس الأموات وعبادتهم عند بعضهم - كما أسلفنا - وقد بلغ تقديس الساميين لموتاهم وأسلافهم إلى حد دفنهم معهم في بيوتهم وسكناتهم أو على مقربة منها؛ وذلك حتى يتسنى لهم تعرية وجوههم واستشارتهم في كل ما يمن لهم من تصرفات مصيرية، كالحرب والهجرة والزواج وغيرها^(٢).

كما اعتبر القدماء منذ عصور ما قبل التاريخ أن الموتى يمتلكون قوى ما فوق الطبيعة الخارقة فعبدهم.. فعدت الجثث وبشكل مباشر، موضوعاً للممارسات الدينية والشعائرية وهو ما تبدى في التحنيط والدفن داخل الصخور الصلدة الجلمودية في جنوب الجزيرة العربية وشمالها، والأردن وسوريا وفلسطين، فضلاً عن وضع الممتلكات حتى المجوهرات والمأكولات مع الموتى من الأسلاف^(٣).

وقد عظم بعض أهل الجاهلية قبور ساداتهم ورؤسائهم واتخذوها أضرحة يزورونها ويتقربون إليها ويتبركون بها، وقد بلغ من بعضهم أن جعلها حصيً وملاذئاً، من دخل إليها أمن، ومن لجأ إليها وكان محتاجاً أغيث.. ومن طلب العون واستغاث بصاحب القبر أغيث، حتى صارت في منزلة المعابد^(٤).

ولعل هذه الصورة القديمة اختص بها على مر العصور الآلهة والأرباب وقد كانت الأصنام في الجاهلية يُستمطر بها ويستغاث، ولها حصي لا يجوز نقضه، ومن هنا شيد العرب الجاهليون الأضرحة المرتفعة لموتاهم، وخاصة الأسباط منهم والأشراف، وتظهر هذه الفكرة عند ابن أبي خازم، حين يمدح أوس بن حارثة، يقول مشبهاً سنام البعير بالضريح المرتفع^(٥):

سناماً يرفع الأخراس عنه إلى سدد كما أرتد الضريح

والغالب أن يكون القسم في موضع ذي حرمة قديمة.. كأن يكون عند قبر مثل قبر سيد قبيلة^(٦). ولعل المقسم به يدخل في هذه الحرمة القديمة، وهذا ما فعلته قبيلة "حارثة بن لأم" التي اتخذت قبر حارثة إلهاً يُعبد ويُحلف به، وقد عيّرهم بذلك بشر بن أبي خازم الأسدي هاجباً أوس بن حارثة، قيل أن يقع الشاعر في أسرهِ يقول^(٧):

(١) أبو سويلم، أنور، المطر في الشعر الجاهلي، ص ١٦٩.

(٢) عبد الحكيم، شوقي، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، ص ٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٦٩.

(٤) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٤٤٨.

(٥) أوس بن حارثة، ديوانه، ص ٥٠.

(٦) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٥٠٩-٥١٠.

(٧) بشر بن أبي خازم الأسدي، ديوانه، ص ٩١.

جملتُم قَبْرَ خاتمةِ بَن لأم
ولها تحلفون به فجورا
ومن الممارسات الطقسية الدينية في تقديس الموتى، أنهم كانوا ينحرون إيلهم وخيولهم على القبور وقد اختلف في سبب العقر، فقيل: إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره في حياته وينحره للأضياف، واحتجوا بقول الشاعر:

وانضح جوانب قبره بدمائهما
فلقد يكون أحادهم ونبائس
وقيل إنما كانوا يفعلون ذلك إعظاماً للميت كما كانوا ينحون للأصنام، وقيل لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى إذا بليت فكأنهم يثأرون لهم فيها. وقيل إن الإبل أنفست أموالهم فكانوا يريدون بذلك أنها قد هانت عليهم لمعظم المصيبة^(١).

وعلى كل فقد كانت الإبل معبودة عند العرب في الجاهلية، وهذه العبادة تشكل مرحلة متطورة في تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ولعلها بقايا العقيدة الطوطمية القديمة^(٢).

ويرى جواد علي أن هذا النحر لا بد أن يكون من الشعائر الدينية والعقائد الجاهلية التي لها علاقة بالموت وباعتقادهم أن موت الإنسان لا يمثل فناء تاماً وإنما هو انتقال من حال إلى حال^(٣).

وعلى كل حال، فقد تحدثت الروايات والأخبار عن ممارسة العرب لهذا الطقس على قبور الأسياء والأشراف وكثيراً ما تنحدر الإبل وتعقر على القبور لتبتل بدماء الإبل. ولا سيما إذا كان الهالك من سادات القبائل^(٤). ويروى أنه كان يعقر على قبر ربيعة بن مكرم في الجاهلية^(٥). وقد اعتذر أحدهم لتركه عقر ناقته على قبر ابن مكرم، فقال معتزلاً^(٦):

نَفَرْتُ قُلُوصِي مِنْ حَجَارَةِ خَرَّةٍ بَنَيْتُ عَلَى طَلْقِ الْيَكْنَنِ وَهَوْبِ
لَا تَفْرِي يَا لِقَاقُ مِنْهُ فَإِنَّهُ شَرِيبُ خَمْرٍ مَسْنَعٍ لِحُرُوبِ
لَوْلَا السَّفَارُ وَبَعْدُ خَرَقٍ مَهْمٌ لَتَرَكْتُهَا تَحْبُو عَلَى الْعُرْقُوبِ

فبلغ شعره بني كنانة، فقالوا: والله لو عقرها لسقنا إليه ألف ناقة سود الحنق^(٧). ولما مات عمرو بن حُمة الدؤسي، وكان ممن تتحاكم إليه العرب، مرَّ بقبره ثلاثة نفر من أهل يثرب قاسمين من الشام.. فمعقروا رواحلهم على قبره^(٨). ووقف رجلٌ على قبر النجاشي فترجَّم وقال: لولا أن القول لا يحيط بما فيك، والوصف يقصرُ ذنوك لأطلبْتُ، بل لأسهبْتُ، ثم عقر ناقته على قبره، وقال^(٩):

(١) الألويسي، ج٢، ص ٣١٠-٣١١. وانظر البيت الأول: فإذا مررت بقبره فاعقر به: كرم الجلال وكل طيرت مسبح النويري، لهلية الأرب في فنون الأدب، ج٣، ص ٣٢٦.

(٢) أبو سويلم، أنور، الإبل في الشعر الجاهلي، ج١، ط١، دار العلوم، الرياض ١٩٨٢م، ص ٢٢٢.

(٣) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦، ص ١٣٠.

(٤) المصدر السابق، ج٥، ص ١٦١.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج١، ص ١٣٦.

(٦) النظر: الأصفهاني، الأغاني، ج١٦، ص ٧٢.

(٧) المصدر السابق، ج١٦، ص ٧٢.

(٨) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م): الأمالي، ج٢، ط٣، دار الكتب المصرية، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ١٤٣.

(٩) المبركة، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٤، ٧٤، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٧م.

عقرت على قبر النجاشي ناقتي بأبيض غضب أخلصته صياقله
على قبر من لو أنني ميت قبله لهانت عليه عند قبري رواجله
وقال رجل من بني أسد يرثي عمرو بن كلثوم، حين رأى قبسته تهتمت ويذكر عقر الجياد على قبره^(١):
أحق لهم أن يهنموا كل قبلة وكل رحيب الجانبين ممدد
وأن يعقروا كمت الجياد ووردها على فاجع هذه العشرة سيد
وقد عقرت الخيل على قبر كليب أيضاً، كما ورد عند أمامة بنت كليب في قولها^(٢):
وعقرت الخيول عليه جهراً فكم من أجرد نهج عتير
وقال أحدهم يذكر قبر حاتم الطائي^(٣):
قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به ولم يقر قبر قبلة قط راكبا
كما كانوا يوصون بالمقر على قبورهم حين يموتون، كما نجد ذلك عند جريبة بن الأشيم يوصي ابنه بأن يعقر
على قبره يقول^(٤):

فمن مبلغ عني يسرا ورافعا وأسلم إن الأوهنين الأقارب
فلا تفتننسي في ضرا وانقنني بنيمومة تنزو على الجناب
وإن أنت لم تعقر علي مطيتي فلا قام في مال لك الدهر حالب
ومن مظاهر تنديس قبور الأسياذ حبس البلياء، فقد كانوا إذا مات الرجل يشدون ناقلته إلى قبره، ويعكسون رأسها
إلى ذنبها، ويغطون رأسها بوليّة وهي البرذعة، فإن أفلتت لم تردّ عن ماء ولا مرعى، ويزعمون أنهم إنما يفعلون
ذلك، ليركبها صاحبها في المماد، ليحشر عليها، فلا يحتاج أن يمشي^(٥).
وهذا يشير إلى إيمان العرب في الجاهلية بالبعث وتجهيز الميت بالطعام والشراب والسلاح والمتاع والمبيد، كما
سبق وذكرنا.

ولعل هذه الممارسة كانت تختص بالأسياذ وكبار القوم، وتظهر فكرة البلياء عند أبي زبيد الطائي في قوله^(٦):
كالبلايا رؤوسها في الولايا مانحات السموم جر الخدود
ويصف أعرابي كثرة ما يترك على القبور من بلياء، ليعث من فيها راكبين يوم الحشر، يقول^(٧):
فقلت لها سيري فما بك علّة ستأمك ملموم وثأبك فاطر
فمتك أو خيرا تركت رذيلة تقلب عينيها إذا مر طائر
كما كانوا يوصون أبناءهم بالبلياء خوفاً من أن يعثروا في الحشر راجلين، يقول عويمر النبهاني^(٨):
أنبي لا تنس البليّة إنهما لأبيك يوم نشوره مركوب

(١) انظر: عمرو بن كلثوم، ديوانه، ص ١٠٦.

(٢) أيمن محمد ميدان، شعر تغلب في الجاهلية، ص ٢١٧، معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٩٥م.

(٣) حاتم الطائي، ديوانه، ص ١٧٨.

(٤) الجاحظ، الحيوان، ج ٦، ص ٤٥٣.

(٥) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣، ص ١٢١. وانظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج ٢، ص ٢٣٢.

(٦) أبي زبيد الطائي، شعره، ص ٥٦.

(٧) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ج ٣، ص ٣٠٦-٣٠٧، دار الجيل، بيروت ١٩٩٠م.

(٨) الألويسي، ج ٢، ص ٣٠٩.

وعند جريبة بن الأثيم الأسدي، وليل اللقسي بوصي ولده^(١):

يا سعد إما أمساكن لبالسي أوصيك إن أخوا الوصاة الأكرب
واحمل أبالك على بعير صالح وابغ الخطيئة إنه هو أصوب
ولعل لي مما تركست مطيئة في الحشر أركبها إذا قيل: اركبوا

وبالرجوع إلى عهد الفراغة نجد أن المقابر الملكية كانت تحتوي على جثث لرجال ونساء من حاشية الملك، وخمنه. الذين اضطحبوا معهم إلى العالم الآخر.. وتكشف هذه الطقوس عن اعتقاد المصريين بأن القوة الحيوية في الجسد الإنساني تستمر بعد الموت وتبقى على هيئة بالجسد وبالعالم الأرضي بطريقة ماء، من هنا جاء اهتمامهم بجعل القبر أقرب ما يكون إلى بيت تسكنه الأرواح أو تعود إليه من وقت لآخر بالترود بالطعام...^(٢).

ومن المعتقدات الشائعة عند الشعوب القديمة استئزال المطر بواسطة الطقوس السحرية على عظام الموتى - كما أسلفنا - ومن الطبيعي أن تنسب هذه المزية بوجه خاص إلى عظام الأمراء الذين كثيراً ما ينتظر منهم أن يـُـزِلوا المطر وهم أحياء^(٣).

وقد مارس العرب منذ القدم هذه الطقوس السحرية، وقد روي أن عظام سلمان بن ربيعة الباهلي كانت عند أهل "بلنجر" في تايوت، فإذا احتبس عليهم المطر، أخرجوها فاستسقوا بها فسقوا^(٤).

قال ابن جمانة الباهلي يذكر قبر سلمان وقبر قتيبة بن مسلم^(٥):

وإن لنا قبرين: قبر بلنجر وقبرا على الصين يا لك من قبر
فهذا الذي بالصين عمت فتوحه وهذا الذي بالترك يسقى به القطر

ويتكرر في الشعر الجاهلي الدعاء بسقيا القبور، إما إرضاء للهامة والصدى، لتهدا الروح الحائرة وتستقر، وإما لاعتقادهم بأن الموتى يمارسون حياة عادية في القبر، فيعطشون ويشربون^(٦).

وكثيراً ما تنبت رياض الرياحين والمسك والمنبر من أثر المطر المُستَسْقَى ببركة السيد، يقول النابغة الذبياني في رثاء النعمان بن الحارث الغساني^(٧):

سقى الغيث قبرا بين بُصْرَى وجاسم بغيث من الوسمي قطر ووابل
ولازل ریحانٌ ومسكٌ وعببرٌ على منتهاء ديمة ثم هاطل
ويُنبتُ حوذاناً وغولاً مَنُوراً سألته من خير ما قال قائل

وقال حفص بن الأحلف الكنانِي يرثي ربيعة بن مكرم، داعياً بالسقيا على قبره^(٨):

لا يَبْعَدَنَّ ربيعة بن مكرم وسقى الغواذي قبرة بنُوب

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢، ص ٢٣١. وانظر: الألويسي، ج٢، ص ٣٠٩ مع اختلاف في بعض الأبيات. وعلي، جواد، المفصل في

تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦، ص ١٢٩-١٣٠.

(٢) فراس السواح، الرحمن والشيطان، ص ٦٥.

(٣) فريزر، أدونيس، ص ٣٠.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص ٤٣٣.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٣٣.

(٦) أبو سويلم، أنور، المطر في الشعر الجاهلي، ص ٨٠.

(٧) النابغة الذبياني، ديوانه، ص ١٩٠.

(٨) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج٢، ص ٩٠٥-٩٠٦.

ويقول قيس بن الخطيم في رثاء ربيعة بن مكرم أيضا^(١):

فسقى الغواذي رمنك ابن مكرم
من صوب كل مجلج وكاب
وعند الخساء رائية أخاها صخراً، يقول^(٢):

سقى الله قبرك صوب الغمام
فروى القلب وروى الجناس
ويدعو المهمل لقبر أخيه كليب بالمقيا، قائلا^(٣):

سقاك الغيث إنك كنت عيها
وينزاً حين يلتصم النصار
ويدعو متم بن نويرة بالسقيا لقبر أخيه مالك، وكيف أن هذه الأمطار التي هطلت على قبره روت الوديان وسقت الزروع وأنبتت الرياض، يقول^(٤):

سقى الله أرضاً، حلها قبر مالك
ذهاب الغواذي المذجات، فأمرعا
فمخرق الأجرع من حول شارع
فروى جبال القرينين فضلفعا

وأثر سئل الوائين بديمة
ترشح وسماً من الثبت خروعا
وينكر لبيد بن ربيعة قبر الأسياء، قائلا^(٥):

فسيهم حمداً وزانست قبورهم
سراة ربحان بقاع مئور
وعلى كل حال فقد كان موت الأعره والسادة خاصة يشكل مصيبة وكارثة على القوم، ويشترك في الحزن والمزاء قوى الطبيعة، التي يمثلها الميذ، حتى إن أوس بن حجر يصور حزن الشمس والقمر والكواكب - وهي عناصر معبودة عند العرب - على موت فضالة بن كدة، قائلا^(٦):

السم تكسب الشمس والنذر والـ
كواكب للجبل الواجب
لفقد فضالة لا تستوي السـ
فقسود ولا خلة الذاهب

ويتساءل الداهية متعجباً، كيف لا تتدك الجبال، ولا تتشق الأرض، ولا تزل نجوم السماء، ولا ينشق أنيمها، لموت حصن بن حنيفة، يقول^(٧):

يقولون "حصن" ثم تأبى لفوسهم
وكيف بحصن والجبال جلوح
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل
نجوم السماء والأليم صحيح
فعما قليل ثم جاش نعيه
فبات لذي القوم وهو يلوح

وتظهر صورة الشمس والكواكب - الآلهة المعبودة - عند الخساء، مشاركة حزنها وعزاءها في موت صخر، لتظلم الأرض من فقدته، تقول^(٨):

وتظلم صورة الشمس والكواكب - الآلهة المعبودة - عند الخساء، مشاركة حزنها وعزاءها في موت صخر، لتظلم الأرض من فقدته، تقول^(٨):

وتظلم صورة الشمس والكواكب - الآلهة المعبودة - عند الخساء، مشاركة حزنها وعزاءها في موت صخر، لتظلم الأرض من فقدته، تقول^(٨):

(١) قيس بن الخطيم، ديوانه، تحقيق: ناصر الدين الأسد، ط٢، دار صادر، بيروت ١٩٦٧م، ص ٢٣٧.

(٢) الخساء، ديوانها، ص ٣٥٢.

(٣) المهمل، ديوانه، ص ٢٩.

(٤) القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ج ٢، ص ٧٥١-٧٥٢.

(٥) لبيد بن ربيعة، ديوانه، ص ٥٣.

(٦) أوس بن حجر، ديوانه، ص ١١-١٠.

(٧) الداهية النيباني، ديوانه، ص ٧٤. وانظر رواية أخرى للخطر الأول من البيت الثاني في ديوانه، بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ص ١٩٠.

(٨) الخساء، ديوانها، ص ١٠٩.

فَرَّالِ الْكَوَاكِبُ مِنْ فَقْدِهِ وَجَلَّاتِ الشَّمْسُ أَجْلَاهَا
وتتكرر صورة الشمس - الآلهة - عند المهلهل في رثاء أخيه كليب، يقول^(١):

لَمَّا نَعَى النَّاعِي كُلِّيًّا أَظْلَمْتُ شَمْسُ النَّهَارِ فَمَا تُرِيدُ طُلُوعًا
بل إن الأرض لا تستقر؛ حزنا لفقد كليب، يقول المهلهل^(٢):

نَعَى النَّاعِي كُلِّيًّا فَقُلْتُ لَهُمْ مَأْنَتْ بِنَا الْأَرْضُ فَأَنْجَابَتْ بَيْنَ فِيهَا
أَضْنَحْتُ مَنَازِلَ بِالسَّلَانِ قَدْ نَزَسْتُ تَبْكِي كُلِّيًّا وَلَمْ تُفَزَّغْ أَقَاصِيهَا

وقد صور المهلهل في قصيدة طويلة حزن الكواكب جميعها في هذا الفقد، ومشاركتها الشاعر مصيبتها^(٣). ولا عجب أن يكون ذلك التمجيل والتقدیس للسيد عند العرب قبل الإسلام، فقد كان السيد يشكّل الحجر الأساس للقبيلة، وبموته ينهار بليان تلك القبيلة، كما يصف عبدة ابن الطيب موت قيس بن عاصم، قائلا^(٤):

لَمَّا كَانَ قَيْسٌ مُلْسَكُةً مُلْكًا وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بَيْنَ قَوْمٍ تَهْتَمَا

(١) المهلهل، ديوانه، ص ٥٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٩١.

(٣) انظر: المهلهل، ديوانه، ص ٣٤-٣٧.

(٤) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج ٢، ص ٧٩٢.